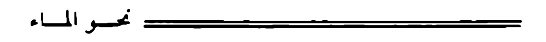
ممدوح عزام

نحو الماء

مجموعة قصص

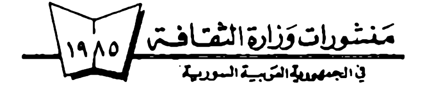
سلسلة قصص وروايات عربية
«٨»



ممدوح عزام

نحو الماء

مجموعة قصص



الإهداء

الى ذكرى امي

معاش للأبي جميل

« أيتها الريح ، واذا حل الشتاء ...
أيستطيع الربيع أن يتأخر بعده كثيراً ؟ »

شـــلي
« أغنية الى الريح الغربية »

الظهيرة . وشمسها اللاهبة . وأبو جميل يصل إلى البيت متأخراً : كانت أم جميل بانتظاره ، وأدرك ، من وقفتها الرخوة ونظرتها المتهالكة التائهة أنها ماتزال دون طعام . فقال : « « ألم تأكلي بعد ؟ » .

ثم مسد شاربيه . ودسّ أصابعه في الدغل الكثيف ، فخرمشت رؤوسهما ذرات التّراب العالقة بين الشعرات :

— « هل الماء جاهز ؟ » .

أومأت برأسها وأشارت إلى « الباكه » دون أن تنطق ، ودون أن تنزع لثامها عن فمها ؛ جرّ أبو جميل الحمار خلفه ، وربطه إلى الحائط ، حيث كانت حلقة حديدية لامعة مثبتة في الحجر الأزرق . . . قرب خليط العلف إليه ، ثم ربت على مؤخرته ، فتناثر الغبار دوائر ، دوائر ، ودخل إلى الباكة ليغسل جسده . .

— « لاتتأخر » نادت أم جميل « سأضع الطعام » .

« يالله » قال وهو يغطس ساقيه في الماء الفاتر ؛ فتسري لذة منعشة إلى الجسد الناحل .

وعندما انتهى وبدأ يرشق الماء على وجهه ، سمع وقع خطواتها وراءه ، فأدرك أن لديها ماتقول ، نشف وجهه وساقيه وذراعيه ورش الماء المتجمع في الآنية النحاسية في أرض « الباكه » وقال :

ـ « بم تفكرين ؟ » .

ـ « لاشيء » .

ـ « هاتي ثيابي ! » .

فناولته اياها ، وازاحت اللثام عن فمها وقالت :

ـ « ألم تر أحداً في الطريق ؟ » .

ـ « رأيت ؛ لماذا ؟ » .

ـ « هل أخبروك ؟ » .

ـ«بم سيخبرونني ؟ ثم لاتحكي بالالغاز ـ وقد شعر أنها تستغزه ـ أنا جائع ، وسوف آكل في الحال » .

وشعر بألم في قفا رقبته ، فحكه بقوة ، واكتشف أن ذبابة قد قرصته هناك حتى تورّم الجلد .

ـ « انظري ، هل ترينها ؟ » .

ـ«ضبابه ؟» سألته وبدأت البحث ثم اكتشفت وجودها على ذراعه فقالت : « لاتتحرك هاهي » . صفعت الذراع بقوة ، وفركت الضبابة .

ـ « أهلكتني اللعينة » أضاف وهو يحك بشراهة .

ـ « تعال ، كل ! » .

ومشت إلى غرفتهما ، منهكة ؛ تسير دون حماس ورأى أنها عجوز حقاً ، وأنها كأنما تمشي نحو حتفها . وتعجب لأنه لم يلاحظ ذلك من قبل أبداً . .. تذكر خطواتها المرتعشة ، وهي تأتي إليه . وتذكر سؤالها عمن رأى وعمّ أخبروه ، ولام نفسه لأنه أهمل ذلك كله ، ولم يأبه به ، ومرت في خاطره صورتها وهي في الصبا يانعة كعنقود عنب . . ابتسم وطأطأ رأسه متفادياً أطواق الباذنجان المقدّد المعلقة في حنت الباب ، ومضى نحو طبق الطعام حثيثاً :

–«ها ، قولي . ماذا حدث ؟» قال وهو يغمس لقمته الأولى في صحن الكوسا الساخن .

–«لاشيء .. –قالت باقتضاب. أنت لاتهتم بأي شيء» .

«لماذا . . . هل اهتم بما لاأعرف ..»أجابها وهو شارد ، دون أن يرسم في ذهنه أية مسألة . كان متعباً من الرجاد طوال الهزيع الأخير من الليل وبه رغبة للنوم . .

– « طيب!» قالت وهي تنزع لثامها وتشد فوطتها إلى الوراء « أنت قاتلت في المزرعة أم ماقاتلت ؟ » .

– « قاتلت » أجاب بذهول .

– « ورحت مع الباشا إلى وادي السرحان ؟ » .

– « رحت ! » .

–« طيب ،لماذا أعطوا أبا حسين معاشاً ، وأنت ماأعطوك»

– « أبو حسين يوسف ؟ » .

–« نعم ! » هزت رأسها وأخذت تحدق في وجهه..

فصمت لحظة ، دون تفكير تقريباً ، كالأبله ، قال :

– « غشني ابن الكلب » .

ـ « لاعلاقة لأبي حسين بالأمر » رددت بخماس .

ـ « أعرف . . أنا أقصد سليم » .

ـ. « أبن أسعد ؟ » .

ـ « نعم » قال بلا مبالاة،وأضاف وهو يبعد الطعام من أمامه :

ـ «سألني ان كنت شاركت مع العصابات، ولم يقل لي لماذا ؛ اعتقدت أنهم يريدون أخذ البواريد التي نهبناها ».

استدار نحو الباب وتأمل الأثير اللاهث من الصهد، آلمه ظهره ؛ فأسنده إلى الحائط ، وأخذ يفكر فيما آل اليه حاله ، وبدا له أنه تعيس وأنه لايساوي شيئاً في هذه القرية : وخطرت له فكرة تقول أنه وحيد ، ولا أحد يأبه له ، أو يهتم به ، أو يلتفت إليه ، وأن أولاده هم أعداؤه الحقيقيون في هذه القرية ، هم الذين وضعوه هنا ، أوصلوه إلى هذه السن مهترئاً ، منهكاً ، ثم تركوه . . . رحلوا لايلوون على شيء ، لاينظرون إلى الوراء حيث خلفوا عجوزين هرمين ، تخت عظامهما ، وأنهم لولا إهمالهم له . . . أنهم لو تذكروا أن لهم أباً

يقترب من حافة القبر لكان الآن في عداد من أخذوا معاشاً ..
وشعر بالغضب ، ثم حزن ، وحاول أن ينهض . بيد أنه
أحس بآلام في مفاصله فاستلقى على ظهره متأوهاً . .
وبعد لحظات أغفى وتخيل أن فرساً يمتطيها فارس مقنع ،
تدفع به إلى حائط متداع ، وأن الحائط ينهار ، فصرخ
واستيقظ خائفاً ، وأخذ يفكر في سليم ؛ فعاوده الحزن ،
ورأى أن الحر قد ازداد ، وأنه يكاد يختنق في الغرفة ؛
تلفت حوله ، فلم ير أم جميل ؛ وتمنى لوتأتي الآن بابريق
الماء ، فقد شعر أن حلقه قد جف ، وأن اضلاعه يابسة ،
حاول أن يتحرك ، فطقطقت عظامه ، واتكأ إلى الحائط
ثم أخرج رأسه من النافذة فلفحته نسمة حارة ، رأى كميل
(حفيده الأصغر) وسأله عن جدته ؛ فقال : « انها تغزل
مع أمي » فقال : « نادها » ثم دخل وسمعها تسأله ان
كان يبغي شيئاً فقال : « تعالي » ، فجاءت وهي تحمل طبق
القش الملون الذي تصنعه ، واعتذرت أنها كانت تعلّم
كنتها كيف تبدأ الصنع ،فقال: «ظننتك تغزلين» قالت«غزلنا
قليلاً» ، فتأمل الطبق وبدا له بديعاً، ومتقناً ، وسأل عن
اللون الأزرق الذي يرتاح إليه،فقالت: «سأختم به». قال :

« اشتهي كأساً من المته » فقالت : « أنا أحضره وأنت نصب » قال « هاتي » .

للمته مذاق لاينسى بعد النوم ، وللكأس الأولى بمرارتها المميزة ، وطعم العشب الأخضر المبلول ميزة خاصة لديه لايتخلى عنها ، وهاقد أصبح عمر هذه العادة ينوف على الأربعين عاماً . لكنها تظل طازجة وجديدة كل مرة . شرب ثلا ث كؤوس ثم أعطى الرابعة لأم جميل . .

ــ « حر اليوم ؟ » سألها،متحاشياً النظر في عينيها مباشرة . .

فتناولت الكأس ، ثم شربته بسرعة ، دون أن تجيب ، وحين عادت إلى الصّنع قالت :

ــ « هل ستسكت ؟ » .

ــ « لاأعرف ماأفعل » .

ــ« ولا أنا ، ولكن أبا حسين ليس أفضل منك؛ كان يسرق الدجاج حين كنت تحارب ! » .

فدمدم بخشونة : « أبو حسين رجّال » .

-.. « حرامي ! » .

« كان . . وقوس على الفرنسيين » .

- « من أجل السرقة ! » .

- « ولكنه قتل جندياً فرنسياً في أحد الأيام » .

- « خلص يعني ؟ » .

- « يمكن » .

- « وأنت ؟ » .

هذا السؤال أمضّه . كما في أتون متوهج . وتهبط الذكريات عارية من سنوات الشباب : البارودة في الكتف اليافع ؛ والفرس راعشة مثل فراشة . قال عمه ضاهر :

-. «تعال معنا» فذهب وتربص أول مرة بدورية من أربعة جنود مع عمه حسان . وطاخ . طاخ . طاخ.مات الجنود الأربعة ، وفر الاثنان ؛ اختفيا كفقاعتين . وفي رمل الذاكرة لم يأت ذاك السؤال .

لم تكن له أية بذرة في أية أرض . . أحس بهياج مفاجىء ، و رغب في الخروج من البيت ؛ فحمل عصاه

ودب على الأرض . . توقف في باحة الدار قليلاً ، ورفع بصره نحو السماء فأعماه ضوء الشمس، طأطأ وراقب الأفق الغربي بحثاً عن غزلان الندى : الحر ينضج الأرض ، ولن يحصد في الغد .

سار ، دون هدف ، لم يكن يكره أحداً ، ونسي أمر سليم بن أسعد ، بيد أنه كان حزيناً ، ضيقٌ مبهظ يجوب أعماقه ، يطويه كقنطرة من الحجارة ؛ فيحدودب ، ويمضي ملتجئاً إلى الحيطان الزرقاء حيث بقعت الأرض ببعض الظلال . هتف له الشيخ أبو ذياب ، فمال إليه ، وجلس على « الطواطي » واضعاً عصاه بين فخذيه المنفرجتين ، ومتكئاً إليها بكلتا يديه . . رائحة القهوة المرة تبحر في فضاء المضافة المزينة بصور المشايخ الصالحين ، وأبوذياب يسأله ، وهو يرشف فنجان قهوته :

– « صحيح أنك لم تشترك في المزرعة ؟ » .

فحنى أبو جميل هامته وقال :

– « الآن صاروا يقولون هذا » ؟ .

– « قالوا ، وأنا رددت ماحكيته لي من قبل » .

.. « كثر خيرك ! » .

ـ « لو كنت مثلك ، لما سكت » .

ـ « وماذا يمكن أن أفعل ؟ » .

ـ « طالب بحقك ! » .

أغمض عينيه ، وهز رأسه ، وقال بأسى :

ـ « وأين يمكن أن يأتيني حقي ، إذ كنت قد حلفت لهم بكتاب الحكمة ثم استوفوا مني القرض الزراعي مرتين ؟ » .

ـ « هذه المرة الأمر مختلف ، كل الناس تعرف جهادك ، اذهب إلى المحافظ » .

ـ « هذا قوي » .

ـ « يشيل الزير من البير ، وكل أهله في الحكومة » .

فتأمل السماء من الباب المشرع ، لاحظ الزرقة عند تخوم الأفق والغيمات الصغيرات الراقدة قرب المرتفعات الهلالية المرسومة بخطوط زرقاء باهتة في الجولان البعيد ، فقال بثبات :

- « ان جاء الندى بكره فلن أذهب » .

- « مافي ندى » .

- « تلك غزالة فوق جبل الشيخ » .

فأطل الشيخ أبو ذياب وراقب الأفق مظللاً عينيه براحة يده :

- « أي والله - قال بفرح - لكن اذا ظلت وحدها ؟ ! » .

فقام أبو جميل وقال بمودة : « لا ، ان شاء الله سيأتي الندى بعد منتصف الليل ، ثم غمغم وهو يتجه نحو الباب :

- « عشرة أيام حتى الآن ! لقد احترقنا ! » .

سار في الشارع الضيق الصاعد في نهايته نحو بيت المختار ثم انعطف يميناً ، دون أن يعين وجهة سيره لايكف عقله عن التفكير ، رغم حرارة الشمس اللاهبة ، وشعر أن حياته مضت سريعاً ، ومثل شرارة لاتنطفيء ، كل ماالتوى فيها وتعرج ظل أملس كجلد الثعبان ، منذ أن توقفت معارك اللجاه ، ومنذ أن عاد إلى الوطن من وادي السرحان ، ثم طفق ينجب ويزوج أولاده ، ويزرع ويحصد ويأكل ويشرب . يمزق عصابات النهارات والليالي ، كانت

تمضي حياته مثل كتابة على الرمال ، وبدت له تافهة وبلا معنى ؛ حتى الاطمئنان الذي آنس اليه بدا بليداً ، وهو ينفض عنه صدأ السنين التي انقضت وأحس أنه ورقة تائهة في حر الظهيرة .

مرق قربه بضعة أولاد يتصايحون ، وأثار آخرهم الغبار حوله من عصا يركبها كالحصان ويمضي بها خبباً ؛ فأسرع في مشيته وهو يردد : « يارب يبعث الندى » ولم يستطع التخلص من التفكير في وضعه ، وتأكد أن حظه العاثر لاينِي يواجهه على الدوام بتنبؤات شاحبة ، ولا يفتأ يسعى إليه . . والاّ هل كان عليه أن ينتظر هذا اليوم الذي يسمّى فيه أبو حسين ثائراً ؟ ويلغي اسمه هو من الوجود؟ ..

ورغم أن فكرة الحظ العاثر جاءت دون تفكير ، فقد تفتحت بكل مافيها من سواد الهم .

وجد نفسه أمام بوابة بيت ابنه جميل ، شد رتاج الباب ودخل ، كانت البنت الكبيرة تغسل الباحة الاسمنتية وهي تغني ؛ فسألها : « أبوك هنا ياشكرية ؟ ! » .

ـ « أهلاً جدي » قالت بجذل وأضافت مشيرة نحو المضافة : « نعم جاء منذ قليل وهو يغلي القهوة » .

أذاك ، صعد إليه باذلاً جهداً مضاعفاً ؛ شعر أنه مريض فعلاً ، وأن قواه تخور ، فتذكر يوم وصوله إلى البلد عائداً من وادي السرحان ؛ كان المساء غبشاً ، مغطى بالسديم ، وكانت القرية تعج باللغط ، ولسبب ما ، آنها ، خارت قواه ، وهو يقبل من طريق القصر ، وزادت دقات قلبه حتى اضطر للجلوس « سقا الله » قال لنفسه ، ثم فتح الباب ، وولج من الضلفة التي انفتحت :

ـ « مسيك بالخير ! » .

ـ « أهلاً يابا ، مسيك بألف خير ! » قال جميل وهو يزم حاجبيه مراقباً القهوة . .

جلس أبو جميل على « الطواطي » وجعل يقرع الأرض بعصاه دقات خفيفة :

ـ « شفت ماذا فعل أولاد الحرام ؟ » .

فهز ابنه رأسه وظل يراقب قهوته ، وقال : « شفت ! »

– « مارأيك ؟ » .

– « صار ماصار » .

– « ولكن حقي . . . ؟ » .

لاحظ جميل القهوة الفائرة في فقاعات متلألئة ، فأطفأ النار ، وقال بجفاء :

« لاحقّاك ولا بطيخ . . . اليوم لاحقوق لأحد . » ثم أضاف وهو ينشف يديه : « ثم من قال لك هذا الكلام ؟ مؤكد أنه محمود ابن عمي سعيد ؛ لايعرف سوى الفلسفة » فقال أبو جميل وقد حاول أن يكون رقيقاً :

– « لايابا محمود لاعلاقة لـــه ، ولم أره اليوم ؛ الشيخ أبو ذياب هو الذي قال » .

فقهقه جميل بقوة ، وضرب جبينه براحة يده . .

– « والله سيذهب هذا الشيخ إلى جهنم قبل ماتروح أم سامر » .

– « حرام عليك يابا » قال أبو جميل بأسي ، ولاحظ جميل أن أباه حزين ، ومتعب ، فقال :

.. « يابا ، قوم روح اقعد في البيت واسكت ، هاذه حكومة تفعل ماتريد ، حظلك هكذا » .

ثم سأله دون تفكير : « هل رأيت الحوّاط أو سمعته ؟ .

— « لا » أجاب :

— « غدا سيحتفلون بأبي حسين ! » .

فدق الأرض بعصاه ، ونهض بكسل وتثاقل ، لكنه شعر برغبة متجددة للذهاب في الغد إلى المحافظ ؛ لم يكن يتصور تفاصيل ماسيفعل وما سيقول لكن المشروع غدا قراراً لارجعة فيه ، وفكر وهو ينزل الدرج الحجري فيما إذا كان سيحضر الاحتفال ، وقرر ألاّ يذهب ، غير أنه عندما وصل إلى البيت قال لأم جميل :

ان من المعيب ألاّ يشارك . . وانه لن يسمح لهم بانتقاده ، ثم ماذا يمكن أن يقولوا عن ثورة وحروب مازال هو شاهدها الحي الوحيد ؟

ولم يكف طوال بعد الظهر عن التفكير فيما آل إليه حاله . . وتنقل بين الباكة والتبان وأطعم الحلال والحمار

وراقب الأفق بضع مرات ، هاتفاً لغزلان الندى . . وراحت أفكاره تتقطع متنقلة من ظلال الماضي إلى حدود الحاضر في مسيل العصر الحار ، ووهدة احساسه بالضعف والوحدة ، وقبل المغيب جاء حسن ، ولعن الجميع بمن فيهم سليم بن أسعد وحسين ابن أبي حسين وقال : ان مركزه هو الذي أعطى أباه المعاش ، ثم اغتسل ، واختفى داخل احدى الغرف بعد أن أنهى رش توابله دون أن تلتقي عيناه مرة واحدة بعيني أبيه الذي يراقبه صامتاً وهو متربع أمام باب المضافة .

يفتح أبوجميل الباب على مصراعيه ، وينفخ هواء رئتيه بقوة ؛ سيبقى حسن يحيره إلى الأبد ، أما جميل فقد منحه الله لساناً يقطع الحديد ، وعزات مختف في العاصمة ، وكان قد رشف فنجاني قهوة ، واتكأ إلى الحائط مداعباً ساقيه حين دخل محمد الحوّاط :

- « مسيكم بالخير » !

- « يسعد مساك ».

نهض وصب القهوة ، وألقى تحية المساء على ضيفه وقال :

- « أهلاً وسهلاً » .

- «الله يديم مهلتك، تفضل بكره لعند أبي حسين . هناك احتفال بالمعاش الذي أخذه ». .

مرة أخرى ينتابه شعور بالخيبة ، والمرارة ، وأمسى جثة جافة وهو يودع الحوّاط الذي اعتلى ظهر حماره ومضى ؛ لم يكن من عادة محمد أن يراقب الناس ، رغم ان مهنته تجعله يرى الجميع ، ولذا لم يلاحظ النظرات التائهة ، المغروسة في الأفق الزعفراني ، حيث كان أبو جميل قد ثبت ناظريه . .

بدأ الظلام يتراكم في صمت ، طار خفاش ودوّم ، وكان القمر قد بدأ يتأخر ، فراقب أبو جميل يراعة تضيء قرب الجدار ، ومن جنبات الأفق اختفت الغمامات الصغيرات اللائي ظهرن في النهار ،اختفى لون الزعفران ، وانسدل ستار كثيف من العتم ترك في نفس أبي جميل شعوراً بالعزلة وبالوحدة أمام محراب هذا الكون الشاسع . أحضرت كنته المصباح فأنشغل بتعليقه بعيداً عن النافذة الغربية التي كانت تهب منها رياح ساخنة ترقّص اللهب

المصفر . وتصبغ عنق الزجاجة بالسواد . راقب السماء ،
كانت صافية . رائعة . تعج بالنجوم اللامعة فهز رأسه
نافياً – بأسى – أن يكون ثمة مايشير إلى تغير في الطقس ؛
تمنى لو يستطيع التخلص من هذه العاصفة التي هبت تجتث
الطمأنينة من داخله . وعبثاً استطاع ذلك ، وتقلب في
فراشه مراراً ، وحين كان يغفو ، كانت اغفاءته قلقة .
مضطربة ، تشوبها الكوابيس والأحلام ، وأصوات مبهمة .
فيستيقظ مذعوراً جزعاً . يحس أنه يختنق وأن حلقه قد
جفّ ، والعرق يرشح من كل مسام جسده . غزيراً ،
لزجاً . ساخناً كالمرض ، وأحس أنه أصيب ببعض الحمى .
وبدأ يهذي ، ويتمتم بكلمات غير مفهومة وشعر بخطورة
حالته ، فقعد في فراشه وقلبه يدق فضعف وطفق يصلي
ويتلو آيات من كتاب الحكمة ، حتى سكنتْ نفسه .
وهدأت ، عندها استلقى على ظهره وشد اللحاف إلى
أعلى كتفيه وظل يبحر في السقف حتى أغفا . . . وظن
أنه يهوي من جدار يتقصف حين أيقظه صوت الحواط
وهو يخضّ الباب بعنف وقال له : «ان الجماعة قد قرروا
أن ينتقل الاحتفال إلى المدرسة » . فقال : «وهل يحتاج

هذا لتوقظني قبل الضوء » فضحك محمد الحوّاط وقال : « زعلان عمي أبا جميل ؟ » ثم غادر ، فلعنه أبو جميل ومضى إلى الباكه فأخرج الحمار وقدم له العلف ، ثم فتح للحلال وأخرجها للراعي . .

وفي الساعة السابعة ، سمع صوت اطلاق عيارات نارية ورأى حسن يثب إلى المضافة وهو يشتّم بيت الحماد ويجدّف على الله والانبياء فاستغفر ربه ، وقرر أن يخبر المحافظ بمهزلة الاحتفال هذه ، وفكر أن هذا سيزيد في قوة اقناعه ؛ فاللصوص يصبحون ثواراً ، والثوار ينساهم الجميع ، ثم افترض أن المحافظ لن يأبه بهذا القول فعدل عن قراره . وكان حسن يجول في باحة الدار دون هدف ، وصبحه بخجل ، ولم ينظر في عينيه أبداً ، ثم ذهب إلى عمله ، وسألته كنته ان كان سيذهب إلى الحفل فقال : « لا » وهمس لنفسه « ليتني أستطيع » كانت الشمس تسطع بقوة ، وكان ايقاع النهار بطيئاً ، كابياً وحزيناً ؛ وتمنى لو استطاع مغادرة القرية هذا اليوم . وأدرك أنه عاجز عن ذلك ، عجزه يوم المسيفرة عن انقاذ أخيه سلمان ،

وشعر بحنين أخضر إليه ، وتذكر أنه منذ يومين فقط : كان ذلك الماضي البعيد منسياً في قاع الذاكرة ، لكنه أدرك أن لاشيء يفنى أو يضيع ، كالملح في ماء البحر ، كحبة الحنطة ؛ تموت وتأتي السنبلة . وهز رأسه كأنما كان يكلم نفسه ، ومضى في الساعة التاسعة يسير وقد احدودب ظهره ، متكئاً إلى عكازه اللامعة نحو المدرسة. « سفر ميمون » قال لنفسه . . وكان عليه أن ينحدر إلى الوادي الشتوي ، ويسير فيه مسافة ما حتى يقابله المفترق الترابي الضيق الواصل إلى المدرسة ، بدلاً من الالتفاف حول القرية كلها على الطريق الفسيح . ومنذ أن اعتلى التلة المطلة على الوادي رأى حشداً من الناس بعمائم بيضاء وحطات ، وثياب ملونة يتجمعون هناك . . . واختفوا عن ناظريه عندما انحدر إلى الوادي مدحرجاً بضعة أحجار صغيرة خلفه ؛ كاد يتزلق في المياه القليلة الآسنة المتبقية ذكرى من الشتاء ؛ أعانته العصا ، وحين استعاد توازنه ، مضى مضطرباً ناحية المدرسة . .

يحتفلون أمام الشرفة في الباحة الترابية . . :

ثمة مقاعد منسقة وكراس ، وثمة أعلام وصور معلقة .

استوقف فتى مسرعاً وسأله عمن سيأتي إلى الاحتفال :

– « سيأتي ناس من الحكومة ومن الحزب ! » .

جلس إلى أول مقعد صادفه ، بدأ يلهث من التعب ، والحر ،ومسح عرق جبينه بسبابته المطوية ثم قذف العرق المتجمع بعيداً . .

على الشرفة ، ووراء طاولة خشبية ، وقف بضعة شباب ، جاء أولاد يركضون ، ووقفت ثلاث أو أربع سيارات على الطريق العام .

– « جاؤوا » سرى الهمس .

وتقدم الرجال لاستقبال الضيوف القادمين ، ساد المرج والصخب ، واختلطت العباءات بالثياب المدنية الأنيقة . . أبو جميل وبضعة مسنين يطوون أجسادهم على المقاعد الواطئة ، ثم يقفون احتراماً للضيوف . . ينشد ثلاثة

أطفال نشيد البلاد ؛ حماة الديار عليكم سلام ، يهدأ المكان إلا من صراخ بريء لأطفال يلعبون خلف الحشد الصامت الواقف تحت ظلال تقديس النشيد . .

ويرسل الحر هسيسة عبر الأجساد المعروقة ، يقرأ شاب خلف الطاولة أبياتاً من الشعر ، ويبدي المسنون أعجابهم بالقائه ، لايبدو أنهم يفهمون مايقول ، لكن الايقاع الممزوج بالكلمات الحماسية يطلق من أفواههم عنعنات اعجاب لايخفونها . .

وفي رأسه دوار . . وأبو جميل لايفهم . . وتدور عيناه في محجريهما ، ويرتعش لفكرة أنه لايعرف هذه القرية ، ولم يألف ناسها من قبل ؛ ولكن : هذا أبو اسماعيل.. وذاك أبو نايف وأبو سعيد وأبو نواف وأبو . . . فماذا يحدث في تخوم هذا الصباح الغريب ؟ ولكن صوتاً خلفه يدمدم بالشتيمة ويوقظه من غفلته ! . . يشعر بالوهن من الحر الذي يلهب كتفيه ، ويفكر لو أن هذا الاحتفال له ، يقرّب دالية الأحلام إليه ويقطف حبات كالرخام ، ثم يضنيه الحلم الفارغ ، كأن الناس فقدوا ذاكرتهم في

فينفخ هواء رئتيه ويجفف عرق جبينه وخديه . ويمسح
شاربيه ولحيته ، ثم ينهض مع من ينهض . . ثمة وداع ،
والذين جاؤوا يغادرون . . فجأة يقبل نحوه أبو حسين ،
لايخفي مكره من عينيه ، يسأل وقد أرتدى قناع مودة :

– « هل تعشينا معاً بالأمس ياأبا جميل ؟ . . .
ألا تهنئني ؟ . . »

– « واجبي » وأكمل بصوت متموج : « لم أرك . .
تستأهل . . مبروك » .

– « كثر خيرك . . » يذهب ابوحسين ، ويقترب
شاب لايعرفه :

– « السلام عليكم ! » .

– « وعليكم السلام ! » .

– « أرسلني إليك الاستاذ حسين » .

– « أهلاً وسهلاً » .

– « أنا من الجريدة المحلية وأريد بعض ذكرياتك » .

– « عن الثورة ؟ حاضر ! » بدا أبو جميل مغرطاً
في البهجة . .

ـ « لا . عن المجاهد أبي حسين . . نريد نشرها في الجريدة ؛ وأنت كما قيل لي رافقته في الجهاد » .

فحدج أبو جميل الشاب ، ورأى أنه ناعم وطري أكثر مما يمكن ، ثم أن وجهه مسطح كوجوه ناس الأحلام.. ولسبب ما ، راقب السماء وخطر له أن يسأل الشاب ان كانت غيوم الندى ستمتد في الغد ، وحين فطن لسؤاله تذكر أن عليه أن يجيبه . . وأن يقول شيئاً ؛ ونبش جعبته فلم يجد مايفيده ، وفرقع وتكسر شيء ما في أعماقه ؛ وبدت السماء مكشوفة وبيوت القرية متجهمة ، والأشجار محفوفة بسكون أغبر ، وتساءل إن كانت هذه من علامات الندي ، وقال إن خبرته لاتكفيه وسمع رنيناً في أعماقه ، وصوتاً يناديه باسمه ، ورأى ثلاثة أو أربعة رجال يلوحون له ، وقال ربما رأوا غزالة في مكان ما من الأفق السماوي الشاسع . فترك الشاب ، ومضى وانضم إلى الرجال الذين كانوا بانتظاره ، ساروا معاً ببطء ، ولكن بثبات ، وشيئاً فشيئاً ؛راحوا يختفون،اختلطت قاماتهم بحجارةالقرية وبيوتها .

• • •

يوم في المدينة

تتسع المدينة به ، تبدو الشوارع والساحات والحوانيت وأبواق السيارات والألوان المتناثرة وزعيق الباعة والأشجار المستكينة ، ورذاذ النوافير في الساحات ، وفسحة السماء الصغيرة التي تظهر وتختفي بين الأبنية المثقبة بنوافذ ملونة ، دهشة ، لينة دائمة الطراوة ، دمشق — في خياله — حلم جميل كلعبة مشتهاة ، لايكل ، ولايتعب من الاسترسال فيها ، متلمساً أجزاءها كطفل . . يراقب ، في أحد الشوارع ، ثلة تسد الرصيف ، تتصاعد من حلقتهم همهمة غير مفهومة ، يدفعه فضول الطفل اليهم ، يندس بينهم بصمت . يرى رجلاً مقرفصاً ، يحرك بخفة ثلاثة أقماع صغيرة . تخفي نرداً منقطاً ؛ يحس بالإختناق جراء الحلقة المغلقة ، يخرج رأسه يستنشق الهواء ، يغريه مشهد الشوارع المزدحم بالمتابعة ، ويملأ الضجيج مسمعه، يعود إلى الحلقة ثانية مغتبطاً باللحن المفاجىء ، الذي يطلقه اللاعب بصوت رخـــيم .

يتملى الوجوه المتراكمة التي تحدق باللعبة ، تلتقي عيناه بعينين متجولتين ، فيبتسم لهما ، لكن العينين تهربان ، تنتهي جولة جديدة من اللعبة ، وينطلق صوت اللاعب منغماً :

ـ « خمس ليرات . . خمس ليرات فقط . . حظك ! . . حظااااك ! تعال جرّب ! » .

تنتقل عينا طارق عبر الوجوه . يستحث المتحلقون بعضهم بصمت ، وكل واحد يهمس للآخر بأن يكون الرابح ، أو الضحية أولاً ، لاتتوقف اللعبة ، يربح واحد ، فيمتلىء بالغبطة ، ويخسر آخرون فينسحبون دون ضجيج ، يلاحق طارق يدي اللاعب وهما تتحركان مثل آلة ، تغريه سهولة اللعبة وبساطتها ، دائماً يستطيع أن يحزر موقع النرد الرابح ، هنا : فيكون . . . هناك ! ويكون ، ويتساءل : « كيف يخسر هؤلاء ؟ » .

يندمج بالمكان ، وينسى بهجة المدينة . .

دغدغه شخص ما بقربه متسائلاً : « سهلة ؟ ها ؟ » فوافق بهزات رأسه وخشي أن يظهر الحماس .

— « هل تجرب ؟ » قال الرجل .

—«أنا؟» سأل طارق ، وقد فوجىء ، ثم خجل حين لاحظ أن الرجل قد أخرج قطعة كابية خضراء من جيبه « ليس معي غيرهـــا » همس . . ثم أردف بود ظاهر « مادام حظاً ، فسوف أجرّبه ! » . « أنت حر » قال طارق مظهراً عدم الاهتمام ، ثم أحسّ بالندم ، لأنه انسحب من الود الذي بذله الغريب . . تمنّى لو يثنيه عن عزمه ، لكنه أدرك أن الوقت قد فات ، حين رأى القطعة الممزقة مستلقية قرب أحد الأقماع ، وبجوارها قطعة أخرى مثلها ، أكثر جدة ، خسرت القطعتان ، فخطفهما اللاعب وحشاهما في جيبه .

خيم الامتعاض والحزن على ملامح الرجل ، انسحب إلى الخلف جاراً جسده ، الخائب ، تاركاً فجوة امتلأت فوراً بوجه مستطلع لفتى في عمر طارق . . هلل رجل في الجانب الآخر فرحاً ، تلمس طارق الورقة الوحيدة المطوية في جيبه ، خشخشت نقود معدنية صغيرة قربها ، ضغط عليها بحنان ورفق . . راقب لاعب النرد ؛ ربما كان في

الأربعين من عمره ، لايعرف طارق لماذا اعتقد أنه سكّير أيضاً ، فقد ترهلت زاويتا فمه بأسى ظاهر ، وجفت بشرة وجهه ، وعلتها أخاديد عميقة ، امتدت من كتف خده إلى أسفل الشفتين ، ربما ذكّره بأبي سلمان الذي لم يره منذ رحيله من القرية قبل ثلاث سنوات ، القرية ؟!.. فجأة ينهال خيال أبيه إلى ذاكرته ؛ جبينه أرض محروثة مخضل بقطرات العرق دوماً : سلاماً أيها الأب المكتنف بالحزن ، المتعب ، تعال لترى كيف يكسبون هنا دون عنـــاء ! . .

فكّر أن بامكانه أن يكسب مثلما يفعلون ، ولكنه تردّد حين تلمس الورقة الوحيدة في جيبه ؛ خمس وعشرون ليرة ! ، لكنها يمكن أن تزيد إلى الضعف ! – والرجل الخاسر ؟ . . والآخرون ؟ . . . بيد أنه يعرف مكان النرد كل مرة . .

« انهم يتعجلون بلا شك » هو سيتمهل ويراقب ، ثم يحزر ، ويربح . .

سيكون بمقدوره الآن شراء الكنزة الصوفية المطلوبة

في واجهة « الميامي » أو الحذاء الأحمر الضاحك عند « الردشوز » .

-. « انتهى » قالت أمه « لم يعد لدينا ليرة واحدة»

-. « لكن أبي وعدني أن يدفع لي كل ماأطلب » .

-. « وأين ذهبت بما أعطاك ؟ »

- « دفعت قسط الجامعة ، وإيجار الغرفة ، والكتب والدفاتر »

- « وهل تظن أن أباك قاعد على كنز ؟ »

- « لا »

- « ولاتعرف أنه يبتى الدم ؟ » .

يعرف ، ولكنه الآن يمكن أن يربح دون أن تسيل منه نقطة دم ؛ مرة واحدة وان يضيره الأمر في شيء ، سيقتّر على نفسه قليلاً إن خسر . . .

-« ستربح » يحدث نفسه ، وهو يحدق في الأقماع المتراقصة ، ثم يحدد مكان النرد ، بلا ابطاء ، يرنو إلى النقود التي تروح وتجيء ، تظهر وتختفي ، تتداخل الأصوات ذات الانغام الرتيبة ، والعبارات المعتادة للاعب النرد ، مع ضجيج السيارات المارة في مسمعه ، تملأ أنفه رائحة العرق المتراكم المفعم بالحموضة ، ترتسم في خياله صورته

لابساً الكنزة الدفيئة ، أو الحذاء اللامع ، فجأة ! يجد نفسه يدفع القطعة النقدية إلى يد اللاعب قائلاً : « افرطها لي ! ». فيحلجه الرجل بسرعة ثم يهتف بجذل : « على عيني ! ».

يحشو القطعة النقدية بلا عناية في جيبه الخلفي ، يتناول كومة نقود مجعلكة من رجل مجاور ، يعد منها خمس قطع ويضعها بقوة في كف طارق . .

لاتغيب الحركة الواثقة المشجعة عن طارق ؛ يتراءى له أن ثمة تعاطفاً دافقاً يخفيه الرجل في أعماقه ، تظهره حركة اليد الحانية ؛ « لايهم» — قال لنفسه — لماذا ، وحدثه هاجس هامس أن الانسان قد يحب وقد يكره ، دون التفكير بأسباب الحب أو الكراهية .

مرق خيال أبيه ، مسرعاً ، كاد يكبح جماح الحلم الذي مافتىء يلح عليه ، ملقياً بظلال النقود التي يمكن أن تتضاعف دون عناء؛ راقب اللعبة استعداداً لجولته الأولى، شجعته عينا اللاعب بصراحة . رمى الورقة على القمع الذي جزم أن النرد فيه: «هنا!» قال بمرح مفعم بالثقة؛ فألقى إليه اللاعب نظرة حانية (هكذا اعتقد) قال لنفسه : لقد ربحت . .

لكن دهشته كانت لاتحد ، حين وجد النرد في قمع آخر . سارع اللاعب بحشو الورقة في جيبه دون أن ينظر إلى طارق ؛ ثم انطلق يردّد نغماته بلا اكتراث ، كأنه يبدأ من جديد . .

نظر طارق إليه بحقد ؛ كانت الورقة الخاسرة قد تركت في نفسه احساساً قارساً بالهزيمة : « ألا يخجل لحظة واحدة من ضحاياه ؟ » . . رفض أن تذهب نقوده سدى ؛ وهي التي جاءت مغمّسة بالدم . خجل من نفسه ، وقد مناها بالربح منذ قليل . يريد أن يصرخ : « أرفض هذه اللعبة ، هذا غير عادل ، هذه قسوة ! » فكر أن ينسحب كما فعل غيره قبل الآن ؛ تذكّر الخيبات التي تراكمت على وجوه الناس الذين مروا من هنا ، ثم ولّوا خاسرين ... رغبة مبهمة بالانتقام تشده إلى الحلقة . . لايقوى على الحركة.. أين يختفي الحلم الذي ارتسم ؟ أين تضيع النقود المتعبة ؟ يراقب اللعبة ثانية . . .يعرف دائماً موقع النرد الرابح هنا ! صحيح ! وهناك ! صحيح . . . وهنا وهناك لاتخطىء عيناه أبداً ، وهنا وهناك لن يترك في يد هذا اللاعب قرشاً

واحداً . . سوف ترى . يرمي القطعة الثانية ، وقد قطع يقيناً : لايغيره شيء ، بمكان النرد ، لكن القمع خرج فارغاً ؛ ودون تفكير رمى القطعة الثالثة : « اذن هنا ! » لكن حظها كان شأن أختيها ، ولم تمض بضع دقائق حتى كانت جيبه قد فرغت تماماً . وقد بقيت النقود المعدنية ، وحيدة تخشخش كبومة في خراب . .

يلتفت حوله : شاحب اللون ، منكسر الوجه ، يطغى عليه القهر . . تبدو الوجوه المستطلعة غريبة ، بعيون زائغة : وصفرة مشوبة بغلالة من اليأس واللا مبالاة . . أين ولّى بهاء الناس الذي ارتسم في عينيه قبل ساعات ؟ يخرج من الحلقة الضيقة المتهدمة . . أين ذهب رواء المدينة ؟ يندس بين الجمع ملتجئاً ، هارباً ، هل يعتذر ، لابد أن هذا اللاعب غير جاد في سلب نقود الناس ؟ ولكنك كنت تحلم بسلبه نقوداً ! كان يمزح ، مزحة سخيفة بلا معنى ، « هاتو النقود ! اعيدوها إلي » « كنت أجرّب » « ماذا فعلتم لتأخذوا تعب أبي » « سرقوني ياأبتاه ! » « ضيقة هذه المدينة » ضيّق هذا الشارع . عبثاً يقول . .

ولايخرج الصوت من حلقه . . دعوا الضوء ينفذ إلى هذه البقعة من الأرض ، دعوا السماء تبين ، هاتوا النقود ؛ يضغطه اثنان بينهما ، تنهمر من جبينه قطرات عرق تدفن نفسها في تقاطيع بلاط الرصيف . يريد أن يبكي كنهر .. « لاشيء يأتي دون تعب . يتذكر كلمات أبيه » وهل يتعب الله ؟ » « طبعاً وكيف بني هذا الكون ؟ » « ويعمل بالفلاحة مثلك ؟ » « هو أول الفلاحين ! » « أنا لاأحب التعب ولا أحب أن أكون فلاحاً مثلك » .

« لاتكن ولكنك ستكون شيئاً آخر » .

« ولا معمرجي مثل خالي » « ولا معمرجي ، ولكنك لاتستطيع أكل الخبز دون أن تتعب ، طعم الخبز طيب مع التعب » « ولكن هؤلاء لايتعبون ، أخذوا مالي دون تعب ياأبتاه » .

« سرقوك ؟ » « سرقوني ياأبتاه » « لاشيء هيّن مثل السرقة » .

« ولا أريد أن أكون سارقاً » .

صرخ طارق في اللاعب المشغول بتحريك أقماعه :
« هات المصاري ! » .

ضحك بعض المتجمعين ، ونظر إليه اللاعب نظرة مهمومة خائفة ، فصرخ ثانية :

« قلت هات المصاري ! » .

نظر اللاعب حوله ، فسمع طارق صوتاً مجهولاً قابعاً في مكان ما يصرخ : « الشرطة ! ! » .

حدثت جلبة ما ، نهض الجميع دفعة واحدة ، تناثروا راكضين في كل الاتجاهات . . امتلأ قلب طارق بالقهر ، جرى خلف اللاعب الذي حمل أشياءه القليلة وانزلق مسرعاً في زقاق ضيق ممتد خلف إحدى البنايات ، لا يستطيع اللحاق به ، يقف . . يتمنى لو كانت لديه القدرة على الصراخ أو البكاء ، بيد أنه يقبض على النقود المعدنية في جيبه ، يخشخش بها ، وينطلق باحثاً عن أحد الأفران ..

انه جائع ؛ وسيشتري رغيفاً من الخبز .

• • •

ليلة في حياة رسمية

تذكرت « رسمية » وهي تسمع دقاً قوياً على الباب ، وجيب قلبها يوم دقّ « صياح » قبل سنوات بوابة بيتهم ، (وكانت بانتظـاره) ؛ لبست ثوبهـا المخملي المقصب برقائق ذهبية ، هيأت حقيبتها الجلدية وملأتها باشيائها ، (قال لها : لاتكثري من الثياب) وضعت ثوبين وقميصاً واحداً (كان الثاني ممزقاً) وأخذت شلحتها البرتقالية المطرزة بألوان ربيعية ، وعصفور مزغب فوق النهد : (تلك هدية أختها) ؛ لبستها كثيراً ، وحين كانت جديدة أرادت أن ترميها العجائز اللواتي كن يزرن أمها ، فدخلت الغرفة فجأة (اعتذرت لهن أنها لم تكن تعرف بوجودهن) حدجتها أمها خائفة ،وقد لمع جلدها الفضي كضوء جليدي، غمغمت جدتها بقسوة : « يخزي العين ! روحي البسي ياحبيبتي » وتمتمت العجائز مكرهات : «اسم الله ! اسم الله!».

أحست أنه يقرع طبولاً ، تمنت لو كانت قربه لتهمس له أن يخفف دقاته ، (قال لها صياح ، فيما بعد ، انه

كان ينقر نقراً خفيفاً ، وقال وهو يردفها خلفه : على صهوة الحصان : لوعلمت أنك تخافين هكذا ، لما جرؤت على المجيء ، وقبّل الشعرات اللواتي تدلين إلى كتفه : ثم خب مخترقاً الليل) . . خافت أن يسمع أحد في الدار : لملمت نفسها ، وانسلت إليه في العتم ؛ يومئذ أتيح لها أن تتأمل النجوم المتفرقة ، كأعشاش العصافير ، وتراقب القمر ، المجفل يعدو بين غيوم بيضاء ، تتمازج مثل عجينة من طحين ناضج ، داست ذيل الكلب النائم في فناء الدار ، فأفاق غاضباً ، ثم استدار — حين رآها — ومسح أنفه بقدمها وغط في النوم ، وخشيت ، وهي تنطلق إلى الباب ، أن يكون ماسمعته حلماً أو وهماً ، فهمست :

— « صياح ! صياح ! » .

تذكرت أنها سمعت صوته ، ففتحت الباب ، وارتمت بين ذراعيه : تذكرت همهمة الحصان ، ودقات قائمتيه الخرساء الملفوفة بالخرق ، ضربت شعرات من ذيله وجهيهما ، وابتسم صياح فرأت لون القمر ، يرتسم على تقاطيع وجهه : تلمست صدره ، واستمعت إلى دقات قلبه : مثل قطرات الماء يزداد الدق على الباب ، لانفتح .

تتذكر رسمية ، جدها ، (أين أنت الآن ياجدي ؟).

كانت تسمعهم يقولون : إنه خرفان ، وحين سألته ، هز رأسه وقال :

- « مجنون يعني ياحبيبتي ، أنا قلت للناس : لن أنام بعد الآن ، عمري صار سبعين عاماً ، وقد نمت كثيراً ، قلت لهم سأراقب اللحظة التي تنمو فيها سنبلة القمح ، متى تتفتح الزهرة ، سأرى كيف تكبر حبات العنب ، وبعد الموت سأنام أكثر من أهل الكهف ، خرفان ! ! مجنون يعني » .

تذكرت ، أنها خافت أن تلتقي به ؛ لكنها تمنت لو تعرف رأيه بما فعلت ؛ قالت لصياح : ربما رأيناه آتياً من جولة ، بين السنابل . . وقالت : ليتني أعرف ماسيقوله عني : خرفانة أم مجنونة ؟

تذكرت رسمية وهي تسمع الدق ، أن خوفها وأسئلتها وشوقها لجدها ، قد تلاشت ، حين اختفت كل ظلال القرية عن عينيها ، (لم يعد ، الآن ، يستقر في ذاكرتها ،

سوى وقع حوافر الحصان ، على الحجارة) . . يزداد الدق على الباب . . « من ؟ ! » يتحشرج الصوت في حلقها ، لاتسمع جواباً ؛ فتعيد السؤال (يخرج الصوت ممزقاً) « من ؟ ! » وتشتاق للفراشات . ولأعشاش العصافير في شجرة التوت .

تذكرت رسمية أباها ، قالوا لها ، حلف بمولاي العقل لايراك أبداً ، فمات ولم تره . . . تذكرت أمها ، (أين أنت الآن ياأمي) : حاكت لها أربع مخدات من الصوف وقالت : هــذا نقوط البيت . تذكرت نواف : ابن عمها . .

يزداد الدق على الباب . . رأت شبح نواف يدخل شاهراً مسدسه ؛ يتسرب جلده من شقوق الباب الخشبي . . (قالوا أنه سيذبحها بالسكين : فأجفلت . . لماذا جاء بالمسدس ؟)

همست . . لماذا يانواف ؟. . وأرادت أن تحدثه عن حبها لصياح وتقول: أنت ابن عمي ؛ ولكني أحب صياح ،

واحبه الآن أكثر من أي وقت مضى ، أتمنى لو يحضنني بذراعيه اللذين من شوق ! . . تسمع صوتاً في أحشائها يرتعد ، ويسأل « من ؟ ! » لم يكن صوتها ، لو ترجع . . لو يتوقف ذاك الطارق في بلحة الليل ! . . تمنت لو تنام . ولكن هل جاء من عند صباح ؟ هل صباح جريح ؟ هل قتيل ؟ (كان الباب يدق) هل هو صباح ؟ لا يدق ! هل ؟ وهل ؟ . .

تفتح الباب وتصرخ : « أنت ! ! » . .

كان واقفاً بقامته القصيرة ، ووجهه المنتفخ . (بدا دميماً وقبيحاً أكثر من أية لحظة مضت ، يستند بكوعه إلى الباب ، وتفوح منه رائحة الخمر ، ضيّق عينيه ؛ ثم حشر نفسه في الباب ودمدم : (ولك ، أنتظر ثلاث ساعات قبل أن تفتحي) .

ارتعش جسدها ، أحست بقشعريرة تسري في عروقها (لو تجد غطاء تتدثر به) . . دفعت الباب في وجهه ، بدا لها أن قوتها تلاشت مثل الدخان في ريح صرصر ،

تقدم نحوها ، أمسك برقبتها ، فأحست بلزوجة يديه ، دفعها ، فتداعت ، وأغلق الباب ، حاصرها بذراعيه ، ملأت رئتيها بالهواء ، وفاحت من فمه رائحة الخمر ، دفعته بعيداً ، فكرت أن تسرع إلى الباب ، وتهرب ، ترنح ، كاد يسقط ، برقت عيناه مثل ذئب (كانتا تشعان وسط الظلام مثل غسق . يدندن في أذنيها : أحبك ، أحبك ، تمتلىء ، مثل حقل مشبع بالعشب . وحين تتدفق المياه إليها تتوهج . تضيء عيناه ثم يذوب كل شيء ، يذوب مثل نار تنطفىء . كي تفسح الطريق النسيم) . ضغط فكيه . بقوة ، بانت أضراسه واضحة تحت الجلد المتغضن الجاف ، تقدم نحوها (همست تناديه : صباح ! ، فتقدم ، اختبأت خلف حائط البيت ، أشارت له بيدها ، أمسك بها ، فانتشى قلبها ، واصغت إلى ارتعاش جسدها ، التصقت به ، وهمست : « تأخرت ! ! » .

قبّلها ، أحاطت ظهره بساعديها وقرّبته إليها) .

شملها بنظرة هائجة ، وافترت شفتاه عن أسنان بيضاء ، فقالت بصوت مبحوح : « اخرج ! » . . فضحك ، . .

ثم غرق في نوبة سعال خانقة ، استند إلى الحائط ، وشرع يراقبها ، ويهز رأسه ، انتابها احساس بقرب موتها ؛ شعرت أنه موت بليد ، تافه ، وصغير ، حاولت أن تقاوم ، فنهضت في مواجهة الرجل ، رأت في عينيه شراسة لم ترها أبداً من قبل ، وهياجاً لاتعرف معنى له ، وكادت تسأل ؛ أين كانت كل تلك الشراسة ، وهذا الهياج مختبئين ، لولا أن الرجل زحف نحوها ، يحمل ابتسامة ذئبية ، ويدمدم ، ويهمهم ، وقد جعل جسده كله ينتفض ويرتجف ، خنقها خوفها منه ، فلم تستطع أن تخرج الكلمات التي أرادت أن تخاطبه بها ، أرادت أن ترجوه ، ثم عدلت عن ذلك ، وقد صممت أن تدفعه بعيداً عنها ، : « اخرج ! » قالتها بقوة . وغضب ؛ بيد أن الكلمة خرجت محملة بالرجاء ، والذل والمسكنة ، لماذا فعلت ذلك ؟ دفعت يديها في صدره ، فسعل بضع مرات ، بدا مريضاً ومشرفاً على الموت ، عرت وجهه صفرة ، وشحوب ، وغارت عيناه في وجهه ، فاضت مع السعال رائحة الخمر ، شعرت بالقرف والاشمزاز ، وقد تخيلت أن لحمه سيلتصق بلحمها ، رغبت في التقيؤ ، تقلصت عضلات بطنها

والتوى ظهرها ، وخرج من صدرها صوت أشبه بصياح الديك ، ضحك الرجل ضحكة سوداء ، دون حماس ، ظنت أنه يشفق عليها ، وأنه يستعد للعودة من حيث جاء، وأنه لايريد منها شيئاً ، لايريد سوى اخافتها وارعابها وتجربتها ثم يرحل ، لكنه لم يفعل شيئاً من ذلك؛ بل طفق يقترب منها ، بدأت الدنيا تظلم حول عينيها ، والليل يتسرب إلى الغرفة . . لم تعد ترى ضوء المصباح المترجرج ، ولا جدران الغرفة المكلسة ، لا الباب ولا النوافذ. هدأت الريح ، صار الرجل قريباً منها، سمعت أنفاسه المتلاحقة ولهاثه الراكض ، وحين لامست شفتاه خدها شهقت ؛ دفعت كفيها في وجهه ؛ فتداعى ، تراجع إلى الوراء ثم انتفض وهو يزمجر ويهدر وينز و . . . (كان صياح حين يريدها . يحملها بين ذراعيه. يضعها برفق فوق حافة السرير . يقبلها . يهمس في أذنها . ينحني فوقها كالماء ويذهب فيها كالشراع) . . أحاط عنقها بأصابعه . وطفق يضغط . لم تعد ترى منه سوى ظلال راجفة . اشتاقت أن تعبّ رشفة من الهواء . كرهت الموت ؛ كم ترغب بالوقوف على قدميها . كم تريد أن

تنتزع ظهرها عن حافة السرير التي تحفر فيه . كم تشتاق اصياح ، لصدره الشاسع .

فجأة ! ! يفلتها الرجل ، ويمزق ثوبها بضربة واحدة . تكومت على نفسها ، ملأت رئتيها بالهواء ، وجمعت ثدييها اللذين تدليا . .

« أنا لا أخرج من بيت دخلته يارسمية » جاء صوت الرجل مخرشاً مرتجفاً ، فوجئت به ، نظرت إليه : بدا غارقاً في الشهوة فبصقت عليه : شدها من شعرها ، ثم خضّ رأسها بعنف وكراهية . . « لو كان صياح نفسه هنا ، فسأجيء » دق بقبضته على صدره : « أتفهمين وعندما يعود قولي له » وقرص خديها بأصابعه ، ثم دفعها ، فارتطم رأسها بحافة السرير . . ولولت بضع أشباح أمامها ثم انكبت على وجهها ، ماذا تقول له ؟ ماذا يمكن أن يصدق أو لا يصدق ، أيعود ؟

(يوم عرفته كانت تحلم بارتداء ثوب فراشة ، والاستحمام في غيمة صيفية وحين تأملت عينيه ظنت أنها حقل مزروع بالسنابل) .

« أنا لا يتحداني أحد ، هل تسمعين ؟ » بدأ الرجل يصرخ : « لا أنت ولا صباح ولا كل أهل هذه القرية » .. تمنت لو كانت لديها القدرة على الصراخ ، بيد أنها أدركت عجزها عن ذلك ، أدركت أن كل صراخ العالم لا ينقذها ، من يصدقها في حلكة هذا الليل ؟ من ؟ وتسأل نفسها : يمكن أن تذهب ، إلى الموت ؟ لكنها تكرهه ، لا تريد أن تموت ، لا ، يصرخ صوت في أعماقها ، وتريد أن تصرخ معها ذكرياتها ، حبها لصباح ، أشياء الغرفة ، الهواء البطيء الناعس . ترغب بالتنفس ، لا تستطيع ؛ تفاجئها حركة مريبة قربها ، تلمسها أجزاء من جسد الرجل الذي أضحى عارياً ، اقشعر بدنها حين مرق اللحم المشعر ، الفاتر ، الغارق في العرق والروائح العطرية ، قربها . . انتفضت كأنها أفاقت من حلم مزعج ثقيل مطبق بارد ، أو كأنما عادت إليها روحها . بعد أن غادرتها وانتقلت إلى جسد آخر ، لا تريد هذا الليل . لا تريد الموت ، لا تريد هذا الظلام ، تشتاق لضوء القمر الذي رأته يعدو بين النجوم ذات ليلة ، تريد النافذة . . النافذة ! النافذة ! .

ملكة الحجارة

« وصلت ، ها أنذا انتظريني ، أيتها الأحجار »

بابلو نيرودا

. . . وفجأة ، في الصباح ، رآها ، كانت تبتسم .
وتحدق فيه ، وتدعوه ليفك عنها قيودها الحديدة ، (وهكذا
كان يظن كلما اقتلع حجراً ، أو قصبة !).

وضع عدة الشغل ذاهلاً ، واقترب منها ، وقال لنفسه
(منذ متى كانت هذه الصخرة هنا ؟) وظن أنها ولدت
بالأمس ؛ ولماذا لم يكتشفها من قبل ؟ هو أبو نواف
المعمرجي الذي يعرف كل الحجارة في هذا الوعر المتفتح
في الصبح ؛ لم ير هذه الصخرة من قبل ! فيدور حولها ؛
مرة ، ومرة ، ومرة ، يحدث نفسه مبهوراً ، مستحثاً بلون
الصخرة ، ورائحتها (وكان يصر أبداً أن للحجارة رائحة
تتصاعد نكهتها كل حين) .

كانت الصخرة الراسية خلف لافة الحجارة المتعجدة ،
الهرمة ، تبدو بتاجها المضلع ، وأمواجها الممتدة ، وغلالة
اللون القاتم ؛ الذي يغطيها ، متجهمة قليلاً ، وقد غطاها

طحلب يابس ؛ ميت . رمادي . متفتت ، وحزينة أيضاً في التوائها ، وحدبتها .

ابتعد عنها ، وتأملها ، وانتابته نوبة من السعال ، جاءت حادة متلاحقة ، فانحنى ، وهو يكاد يختنق ، ثم قذف بكل قوته بصاقاً دخانياً ، وأحس بالراحة ، ومسح شفتيه بطرف كمه . واشتهى لفافة فأخرج علبته النحاسية ، ثم لف واحدة ، وقرفص قبالة الصخرة يلدخن ويبني مشروعاً جديداً ، وحلماً بثمن محترم لما سيقطعه من خزانة صخرته ، المتوهجة ، الشاسعة !

لكن وسواساً خفيفاً يخترم القلب ، ثمة ماهو غريب ؛ متوحش وغير معروف في الوجه القبلي ، ! يعرف ذلك بنظرة واحدة ؛ فللحجارة ، رغم احتشادها ؛ ملامح لاتنسى ، تألقات ، رنين ؛ ومذاق كالخمر ، ملح كما في الخبز ، وصوت يخشخش أو يهمس .

وفي حياة أبي نواف ، كثير من الحجارة . ويعرف أن لكل حجر مكان ، لكل حجر ذكرى تفيض أو تضيق ؛

ثمار تبرز في السفوح الباردة ، الصامتة لمن يسافر قربها صبوراً ، دؤوباً .

وفي حياة أبي نواف ، كثير من صباحات الحجارة في المقالع أيضاً ، ولكل صباح طعم مميز . نسيم مغطى بشجيرات ، وطوالع ، وتفاصيل جديدة .

ولكن في عتبة هذا الصباح ، أمام هذا الحجر . ثمة ماهو جديد ! . وبنظرة متأنية ، فاحصة ، مدققة إلى الصخرة ، من وجوهها جميعاً ، تأكد لديه أنه يواجه شيئاً لايعرفه كلّ المعرفة . ثلاثون عاماً في عشرة الحجارة ، ولكن لهذا الحجر شواطئ مجهولة وأغوار قابعة . وأختاماً تأبى أن تقترب .

فكر أن يدعها ليوم آخر ، وفكر بأبي صالح الاجوج . ومحمود الذي لايدفع ، والنقود التي تنفذ من البيت مستعجلة ، متملصة كالماء « كفك مبخوش ! » تقول أم نواف « وأنت بلا بركة ! » ثم تلف المال القليل في صرّة صغيرة ، تعقدها ، بجدائلها ، وتمضي . لايعترض : لاينبس ببنت

شفة ، يسعل ، أو يشعل لفافة ، ويرتشف فنجان قهوة ، ثم يولي وجهه شطر الباب .

هو الآن يبتسم الذكرى النابتة في حقل تفكيره . ولكن يكدرها زعل يخبئه لأم نواف ، ولا يجرؤ على البوح به ، تمنّى لو استطاع أن يرد ذ د أمامها مايكدره منها ، لكنها لاتفسح له المجال .

نفخ في باطن كفيه المغلقين بالتناوب . وأمسك عصا مهدته الأملس . . . وخطر له أن شغفه يقل ، ويتناقص ، وهجس بأن كفه معافى ، وأن البركة لم ترحل عنه ، وإنما هو هذا العالم الذي تطير فيه أسعار الأشياء ، وتحلق كطيور جارحة ، وأن حراشف الفقر التي تجرحه ، تختبىء في ثياب أولئك الذين يسرقون . ويثرون .

ألهذا تجننوه أم نواف ؟ وأحس بالحزن . وبالمرارة لأنه اضطر في الصيف المنصرم ، وطوال الشتاء لبناء البلوك (وتساءل) ماذا تساوي تلك الدماميك المنخورة . اليابسة . العائمة كقرية منفوخة ؟ » نواف قال : هذه أيامنا يا أبي ،

عصر السرعة ! » وفكر : هل انقضت أيام الحجارة ؟
ثم رفع مهدته وهوى بالضربة الأولى على خاصرة الصخرة :
دائماً يتقرى دربه إلى الصخور بالضربة الأولى ، رنّت ،
وظل الرنين يجوب أذنيه طويلاً . وفكر : سقا الله الأيام
التي مضت . كنت لاتعرف من ترضي ، ومن تزعل .
والزعلان أكثر من الراضي ، كنت تجد من يفزع الك .
واليوم لاترى من يشتغل معك بأجر « قليل » يقولون ،
ومع هذا فأنت لاتفهم ، لماذا يتركون الحجارة تنغض
في باطن الأرض ، ويقبلون على البلوك ، لكنك لاتفقد
الأمل ، فالحجارة لاتهترىء ، تبقى غافية ، حتى يأتي
من يكشف مافيها من زرقة أخصبتها بها البراكين ،
ويبتسم « وسقا الله الأيام التي ستأتي ، الحال سيتغير » .

نلمس سطح الصخرة (هل أيقظت الضربة فيها بعض
اغفاءتها ؟) وهيأ في صدره قوة جديدة ، ثم هوى بمهدته
في الوسط : ثمة عرق متعرج ، طاعن ، يحزمها ، لكنه
أدرك إثر الصدمة التي ارتدت إليه ، وكهربت ذراعه
الأيمن . أنه اخطأ .

كانت ضربته الخاطئة تلك درساً يعرفه جيداً .

والحجارة في صمتها . القاسي . لاتخدعه ، رفقة العمر ، كما كان يقول .

مسح عرق جبينه . وراقب الأرض حوله . كانت الشمس ترمي غلالة لاهبة من الحر . على الوعر الرمادي المترامي . والبخار يغسل ذؤاباته في الفضاء ، ويتلاشى ، وقال لنفسه . إنه لن يستطيع شقها ، وتكسيرها ، قبل أن يحررها مما حولها ، فثمة تراب كثير يحدق بها من ثلاث جهات . ومن الشرق كان يغطيها حتى الجمجمة ، فبدأ يحفر ، ويبعد التراب عنها إلى اليمين وإلى الشمال ، بدأ جانباها يظهران . مبللان بلون التراب البركاني الأحمر ، بدت أكثر جمالاً من الداخل : احتشدت فيها العروق ، وانحنت ، وتوالت ، وانتظمت ، مكيفة وفقاً لمرقد الصخرة!

« عظيم » حدّث نفسه ، وخامره شعور بالفرح ، وبالارتياح ، لأنه لم يتركها اليوم ، ليتابع تقصيب الحجارة التي قطّعها بالأمس ، وكان يعرف أن ذلك لم يكن بيده ، فأمام الحجارة لايجد أبو نواف خياراً ، وفي مرات كثيرة خطر

له أن يترك الشغل في الحجارة ، يسافر إلى الخليج ، وإلى المهاجر ، إلى لبنان ، لكن شيئاً ما كان يشده إليها . حتى إذا سار في الشوارع ، تأمل حجارة البيوت ، وحجارة الأرصفة ، ومن نافذة أي سيارة يستقلها يراقب الحجارة التي تعدو إلى الخلف مفكراً : تلك ! وتلك ! يصحح وضع واحدة ، وينحت أخرى في صورة من الوهم ولاشيء يبعد تفكيره عنها .

خيّل إليه الصخرة ترسم إشارات على وجهها المرضوض . فحفر أمامها قليلاً ، وأطلق أنةَ اعجاب ، عندما تأكد أن جميع العروق فيها ترتسم باستقامة ، وتوازٍ ، سائرة من الأسفل إلى الأعلى ، ثم تنعطف نحو اليمين ، لتلتف إلى الجهة الثانية منها.« عظيم ! » ردّد للمرة الثانية . ورنا إلى الحجر المغمض وإلى الظلال التي تغفو تحت الخاصرة العارية ، المتشققة ، وأمسك بمطرقته وأزميله ، ثم رنا إلى العروق التي انكشفت في الجذع المزين بالتراب . . . نسيم هذا الصباح يتلفع بشجيرات وارفة . وأبو نواف يدرك أنه لن يخرج من هنا قبل زمان

طويل . لقد شد وثاقه إلى هنا . ماذا تقول أم نواف حين يخبرها ؟ « خلّص ورشة أبي صالح أولاً » ستقولها بجفاء ، وتنشب مخارز عينيها في أرجوحة الحلم التي تهتز أمام هذه الصخرة ، « ان خلّصتها بخلص الشغل » ، « لن أقبل » قال لنفسه وهو يزيل التراب عن المكان الذي انكشف وسيصارحها بما يشغله منها ، وانصرف تفكيره إلى حادثة أمس الأول .

هل ماسمعه من همس يتناقله الناس صحيح ؟ لا . أم نواف لاتفعلها أبداً . انها تجافيه ويعرف انها لاتحبه ، وربما اطلقت خيول أمنية بالتخلص منه ، لكنها لاتفعل ذلك . ومع من ؟ مع علي ؟ ولكن مادا كانا يفعلان حين عاد بالأمس ؟ لماذا انخلع لون وجهه ؟ وتلعثم ؟ وغادر البيت ؟ . لابدّ أنك واهم ياأبانواف ، ومريض ، وهاأنت تخرّف ، وتكثر من الظنون .

شعر بالضيق ، وبالذعر ، واستولى عليه احساس مطعم بمذاق مر ، وقارس ، ثم أدرك حين وجد نفسه

لايدق . أنه يضيّع وقته . وأن الحر يزداد ، وسوف يمضي النهار سريعاً .

تأمل قطعة الحجر الشامخة . وقرّر أن يوقعها أرضاً ، في البدء ، باتجاه الغرب ، فاختار العرق ، المشرشر ، الممتد في الخاصرة اليمنى نحو البطن ، ثم الجانب الأيسر . بدأ يدق بالمطرقة على الأزميــل الرفيــع الطويل . كان ينوي عمل ثلاث أو أربع ثقوب ليحشو بها الأسافين .

خبرته الموشحة بعشرة الصخور ، كانت تسيره ، تدله على المكان الصحيح . بدأت ذرات الصخرة الناعمة ، الساخنة ، تصبغ يديه بلونها البارودي . استمر يدق ، ويدق . صارت دقاته تتواتر ، وتتوازى ثم انتظمت في حركة مستمرة ، متوالدة ، بين صعود وهبوط ، وصعود ، وهبوط ، وصعود وهبوط . وبعد لحظات اعتادت يده على حركتها الشاقولية . استقرت القدم في موضعها ثابتة ، صلبة ، رشح الجسد عرقه الزائد ، كان يعرف هذه اللحظات جيداً : فجأة ينتقل الجسد إلى الرتابة ، يختفي التوتر ، وانشداد العضلات ، وخفق القلب الشديد . يندى الجبين

قليلاً : وتفيض رائحة الجسد مالحة ، يصبح العمل معبراً للمذوبة . افقاً ، يستمر الدق كضربات القلب . لكن الصخرة تعاند ، لايدخل الأزميل في ثقبه سوى بضعة سنتيمترات ، تتشظى بضع قطع منها ، مشوهة مكان الثقب . ويختفي الرنين الذي خيل لأبي نواف أنه يسمعه ، أدرك أنه ربما كان يحلم . وابتسم بمرارة حين تذكر كم كثرت جنائن الخيال في رؤاه ، في المنام ، وفي اليقظة . أحلام ، أحلام تطوق أصداف عقله . لكن هذه الصخرة ليست حلماً ، انها تقسو وتقوى كل لحظة ، تكبر وتعاند تربض في وقار أبدي ، وسط جلاميد الصخور ، وسط كورس الطبيعة الصامت ، عند هذا الضحى .

كانت الدقات . والطرقات تتوالى . تستمر . تتواصل وتلتمع كالقناديل . والصخرة لاتستجيب . يتناثر الرذاذ الصخري . المتفتت بطيئاً . قليلاً . تحت وطأة التيدوم الحديدي للأزميل . ولا شيء بعد ! . لا الرنين العميق القادم من النسغ . لا الخفق الهادىء . الاجوج . لااقتراب

النهاية . لاشيء ، يسأل أبو نواف ، ماهذه ؟ ليست مما يعرفه .

هذه الشكيمة ، لم يمسك بها من قبل .

لاتريد ولوج هذا العالم .

تبقى مغمضة ، مطمورة في صمتها الترابي .

ولذلك فهو يعرف أنها قد أضحت غلته التي لن يتركها قبل الحصاد . يأتي بقمحها مقصباً إلى كوارة الخير التي ستفرح قلب أم نواف ، وقلوب الأولاد !

يتوسط لهب الشمس الخريفي السماء ، تهب ريح ساخنة ، مودعة من الغرب ، وتمضي إلى مأوى الصخور ، حيث ينغلق الأفق ، يتبرد بها رغم حرها ، يجفف عرقه ، ويفكر بزوادته ، لكنه لايشعر بالجوع ، يعلم لماذا لايشتهي الجسد طعامه الآن . يبلل شفتيه بقطرات من ماء المطرة البارد ، ثم ينطلق شطر صخرته « انها لك » يحدثه صوت قادم من الأعماق ، محلقاً فوق الأمل المقبل ، عاقداً قوساً من الخير المتدفق ، تتوالى الطرقات ، والدقات ، في

الالتواءات ، والعروق الشجرية ، تتعاقب ، دون توقف .
تتمشى في الذاكرة ، بعض تحديات الشباب ، يوم ضرب بالمهدة مئة ضربة متتالية ، ويوم رفع الحنت الكبير وحده إلى بوابة أبي صايل . تأكد لديه في هذه االلحظات أن الصخرة،ستمنحه مالم تمنحه إياه أية صخرة من قبل . رأى كل ماتخزنه من حجارة ، وكل ماتحويه من أشكال وزخارف ، وأدرك أنه لن يقوى على ملامسة الحجر بعد الآن ان تغلبت عليه . وأنه لن يقوى على الانسحاب أو التراجع .

تحد يقاتل شتاء العمر .

ملح للجسد المحروث بالتجاعيد .

اخضرار في الايل الفياض بالمضائق .

يمسح عرق الجبين ، ويمضي في ضرباته . لايأبه للشمس التي تلج وسط السماء ، مترعة بالتعب . للجسد المرتج كهدر شتائي للصخرة التي تراقب ، وتنقلب ، وتنتظر ، يمضي يدق، ويدق، وينقل أزميله من مكان لآخر ، يحشر أسافينه ، يستحث المشارف ، والاجابات .

كان الآن قد أدخل اسفينين في الجانب الأيمن منها ، أمسك المهدة ودق ثلاث مرات . واستمع إلى الصوت : كان يأتي بلا هدير ، ولا تموج ، ولا تصاعد . أدرك الاسفينين لم يفعلا شيئاً بعد .

عاد إلى الدق . طفق يدق في شريان متعرج ، في عرق يغور في الوسط . عرف أن الحجارة لم تلن بعد . عرف أنها ماتزال تمتحن قواه ، تتفحصه . لاتعطيه يقينها . إلا عندما ندرك أنها في أمان من أولئك الذين يكسرونها إلى حصى ، وشظايا ، ويعرونها ، ولا يغوصون ، يكشفونها الرياح،والمطر ، والحر . انها تخشى العابر ، الطائر ، المسرع ، وتستسلم للمقيم ، المراقب :

وكاد يصرخ بأعلى صوته : « هذا أنا ! هذا أنا » حين سمع خلفه صوتاً . والتفت . كانت أم جميل . تشد إلى كتفها « صايتها » السوداء . حيث تبرز منها جذور الجزل الهشة ، الترابية المتشققة :

- على العافية ، هذه هي المرة الثانية . قالت .

الله يعافيك ، لم أسمع .

- عرفت . ستظل طول عمرك غارق هنا ؟ بين الحجارة ! ؟

فابتسم وقال : وأنت ستظلين طول عمرك تحوشين الجزل ! ؟

- « الفقر ياأبو نواف ، والشتاء على الأبواب » .

- « وأنا مثلك » .

- « أنت تستطيع البناء بالبلوك » .

- « الله يلعنه » .

- « لكن الناس يبتعدون عن الحجارة » .

- « ماذا أفعل ؟ لاأحب غيرها ، سيفرجها الله » .

- «أما أنا فلا أحب الجزل ، ولا الجلة، والله الدخان وحده يخنقنا» .

- «الحجارة غير الجزل ياأم جميل ، الجزل ليصير رماد ، والحجارة مابتترمد » .

. إي ، قالت ثم رنت إلى السماء . « الفرج من عنده».
ومضت نحو القرية التي تتلامح من بعيد .

. . « سلمي على حمد ! » صرخ بها . ثم دمدم ،
وهو يحفر بأصبعه حول عرق عميق في الصخرة ، : « صار
لي خمسين عاماً وأنا انتظر فرجه . » واشتهى لفافة .
فدخنها ، وتذكر ليلة الأمس حين عاد إلى البيت ، لم تكن
أم نواف هناك ، « وبتلا » قالت انها في بيت أبي حسن ،
فاغتسل وبدل ثيابه ، وسخن قهوته . ثم جلس في المضافة
مفكراً في حالته التي تتراجع ، وفي أن قوته كلها تذهب
سدى ، وعندما جاءت أم نواف سمعها تسأل عنه ،
ثم دخلت إلى المضافة ، عابسة ، وغاضبة . وقالت بلا
مقدمات ان أبا صالح زعلان ، وأنه لن يدفع مالهم بذمته
حتى يبدأ العمل لديه من جديد . فهز أبو نواف رأسه
ولم يجب . فقالت ان محموداً سيحضر أبا سليم ليكمل له
بناء الباكة ، « أسعاره أقل » وقالت ان عبدالكريم لايملك
مايسدد به أجور العمار ، وان أبا جميل قد أجل الدفع
إلى البيدر ، ثم أردفت ، كأنها تحدث نفسها : خلصت

المصاري » فاكتفى بهز رأسه . لم يسمع شيئاً . أو هكذا خيل لها . فزعقت قائلة انها قد قرفت منه (وكلما غضبت تقول له ذلك) وأن لحيته الشبيهة بشعر القنافذ تقطع الرزق . وأن حياتها معه سخام . وفقر . وعثرات . فلم يجبها ، ظل يرمقها . وهو صامت . كانت تعرف أنه لن يجيب ، فخرجت وصفقت الباب خلفها . تذكر حين عادت ، وكانت تعود دائماً راضية . هادئة . وقالت بلا إكتراث « تعال . تعشى » فقال انه لايشتهي . فسألته . ماذا فعل اليوم ، فقال كاذباً . قصبت الحنوت . والدساتير « كم واحد ؟ » « تسعة » قذف الرقم بلا تفكير . فقالت « هي تكفي لأبي صالح » فقال « نعــم » ثم أحس برغبة في الراحة ، فاستلقى ، ورآها في غبش الجفنين الغافيين نصف اغفاءة ، تغلق الباب خلفها (تمنى لوظلت قاعدة هناك) ، وتذكر أنه أغفى اغفاءة متقطعة ، وأن أيامه الأخيرة كلها لم ينم ، وأن ريح الخريف أيقظته ، فجأة حين فتحت مصراع النافذة ، وأنه أحس بالوحدة ، وبالبرد ، وبرطوبة تلسع الجسد المزروع بالكهولة ، وبارتجاف

وأن وحشة المساء قد أنهكته ، ودمدم وهو يغلق الضلفة الخشبية المنخورة « بنت الكلبة » ولم يكن يعرف من يشتم ، ثم انتبه أنه قد أنهى لفافته . وأن الصخرة ماتزال تقف أمامه ، شامخة ، تنتشر ، كالأمل الذي يفوح منها ، فنهض ينظر إليها ، كأنما نسي ملامحها ، تأمل اعتراضَ جسدها الذي قرضته الأزاميل ، والأسافين ، وعتمةَ الاجزاء التي لم تعد ترى نور الشمس وهي تميل نحو الغرب . تلمس خشونة السطح – الطحلبي ، افاريزَ النتوءات المحدّقة ، غني ، وهو يمسك شاقوفه ، ويطرق على الأسافين فارتفع صوته كاهتزاز القمح ، تراءت له اجزاء الصخرة في تلون الحلم ، وومض في عقله شراع يستبصر المعجزة التي ستتحقق : كم من الحنوت ، والزوايا ، والدماثير ، وكم من الأقفال يمكن أن يجد ، فكر فجأة بالديناميت ثم ضحك للفكرة ، ماذا تقول الحجارة ؟ وطفق يدق بالشاقوف على الأسافين ، يثقب بالأزميل ، يفتح أسافين جديدة،ويطرق،ويستمع إلى الصوت الذي سيأتي كحقل ربيعي ، ويدق على إزميل جديد ويتساقط الرذاذ البارودي

على اليدين المتشققتين ، ولا يعبأ بالجروح التي تنزف منها دماء لايسمع ماحوله ، يحدق كأنه يغيظ عدواً ، يوقظ لهفة خاشعة ، حلماً راسخاً كجذور عتيقة ، باباً للجداول .
يحدق في الوعر ، علّه يسمع الرنين القادم من نسغ الحجارة .

ويبتسم ، ويهمس : ومع ذلك فأنا أحبك ياأم نواف .و...

١٩٨٢

• • •


ثأر

– ١ –

تدخل زوجته مبللة ، صائحة :

« عقاب ، يتزوّج غداً »

يتوقف عن غسل رجليه ، يخرجهما من « الطشت »
المصبوغ بالتراب والصابون :

« عقاب ! بهذه السرعة !

« علمت من لطفيه ؛ قالت يريد السفر إلى الخليج ..».

يهز رأسه متأمّلاً الحائط :

(هناك ترقد صورة طفل في السادسة من عمره ،
ضاحك ، تلمع عيناه بجذل ، وهما تشملان الغرفة مراقبتين) ،
تقعد زوجته قربه ؛ تتنهد بارتياح ؛ تلقي رأسها على الحائط
غير عابئة بملمس الطين الخشن المنعم برائحة التبن الجاف ،
تبسط رجليها ، ثم تسكن حركتها .

طفقت بضع حبات من المطر تتسلل عبر شقوق الباب ،
يتذكر أن عليه أن يطعم البقرة ؛ ويحكم سدّ النافذة الخشبية

الهرمة في « الباكة » . ويصاح المزراب التالف ، ويتذكر ..
أيحس باقتراب الليل . أم انبلاج العشب ؟ ! منذ ثلاثة
عشر عاماً ينتظر هذه اللحظة ، بماذا سيفكر الآن ؟ بماذا
يجب أن يفكر ؟ شيء ما يضغط على صدره ، يسعل
ليتأكد أنه مازال قادراً على الحركة .

« هل ستذهب ؟ » تسأل

« بالطبع »

« أتخاف ؟ »

يرمقها متسائلاً . كانت تراقب سقف الغرفة .
لم يختبر هذا الشعور من قبل ، يحس أن جسده يتثاقل ،
وأطرافه تترمد ، تنفس بعمق حتى بانت عظام صدره ،
يجب أن تحدثه نفسه بشيء ، ما ، صامتة كقبر وحيد ،
لاتنطق ، لاتقول شيئاً « كانت ، دوماً ، تذكره بهذه
الساعة ، الآن تصمت ! » ينهض إلى « الباكه » يعود
مثقلاً برائحة عفونة البول ، والزبل ، يغتسل ثانية ،
يتمنى لوتحدثه زوجته . يهم بسؤالها عما فعلت أم خليل

مع أم شاهين . يهم بسؤالها عن العشاء ، يراها قد أغفت .
لوت عنقها إلى كتفها ، « نائمة أم ميتة ؟ » يراقب صدرها .

ثلاثة عشر عاماً ؟ تبدو الآن مثل يوم واحد . لكن
الليلة ستطول كثيراً ، تتمدد كتيه بلا قرار .

يهمس لنفسه :

« كانت دمائي تغلي من قبل ، الآن هي تطفطف
خارج جسدي » .

تستيقظ زوجته خائفة . يطمئنها بنظرة من عينيه .
تهز رأسها . تسأله (كأنها لم تنم) :

« ستفي بما وعدت ؟ » .

(يتساءل : ماذا تريد ان تعرف ؟) « هل يمكن أن
أفعل غير ذلك ؟ » .

تسود فترة من الصمت ، تثقبها أصوات الصراصير ،
والضفادع ، يحملق في الصورة المعلقة ، يفكر بصوت
مسموع : « ثلاثة عشر عاماً ؟ » .

تقول زوجته بحرقة : « يابابا ! » .

« لو بقي حياً » .

« كنا زوّجناهما معاً » . تبكي . . يقول : « كان الآن استاذاً مثله » .

يغالب دموعاً صغيرة تجمعت في مقلتيه . ونشيجاً يتحفز للوثوب إلى حلقه . يرى سعيداً يقفز مثل جدي مغرور ، يراه يلعب بالكرة ، يراه يركض ، يتعلق بفخذه . يناديه ، يراه يسكب الماء فوق رأسه ، يراه ضاحكاً ، باكياً ، خائفاً ، يراه تحت عجلات سيارة أبي عقاب . يغمض عينيه ، ينصت لوقع المطر ، وصوت المزراب يطرطش فوق الحجارة المرصوفة خلف الحائط . يهم برسم خطته المقبلة ، يضيع ، يفشل ، يفشل في الامساك بفكرة واحدة ، يؤجل ذلك إلى الغد ، يسعى إلى النوم ، يهرب منه مثل فأر متلصص . يستلقي دون حراك ، يراقب السقف حيث استقرت عينا زوجته ، يرى خطوطاً تظهر آدميين متعانقين ، ينقلب إلى الجهة اليمنى ، يريد أن يغفو .

في الصباح . بانت الأرض غب المطر الخفيف الذي هطل في الليل . صامتة . مترقبة ، يصعد إلى السقيفة ، يحضر بندقيته القديمة ، يوسدها الأرض ، ويشرع بفك أجزائها ، يفرشها مثل أطفال نائمين ، ينظفها دون استعجال ، تعود أم سعيد حاملة سطل الحليب . تضعه قرب النافذة ، تمسك بالمقشة . يقول لها مبتسماً :

« هذه هي المرة الثانية » .

ترمي المقشة من يدها . تسعى إلى الموقد . فتشعله ، تضع الحليب فوقه . يتابع أبو سعيد تنظيف قطع البندقية ، يطلق بصره في ماسورتها ؛ فتلمع ، تتراقص خطوط مضيئة بداخلها. يدندن بلحن معروف ، ينتبه اللحن الأغنية ، يقشعر بدنه ، يجتاحه الخوف كعاصفة شتائية :

هي هي يللي راكبين على السلايل (١) .

---

(١) هي هي يللي راكبين على الســلايل
فوق ضمريم طربا منحرينـــا
سلموا عاربوعنا وقولوا لهـــايل
بالـويـــدا ثارنا حنـــا خذينـــا

يتساءل : « لماذا جاءت أغنية الانتقام هذه إلى خاطري؟».

ينهشه شعور بالذنب ، يهم بالفرار ، تلاقيه صورة سعيد ، فينكفىء ، يتابع تنظيف البندقية ، كادت أجزاؤها تصدأ ، يسمع صوت أخيه في الخارج ، تدخل زوجته وتقول : « سالم يريدك » .

« لن أخرج اليوم » .

تقول : « ستذهبان إلى أجر محمود عزالدين في قرية . . . » .

يشير لها بيده رافضاً ، تخرج ، عندما تعود تهمس : « لقد ذهب » .

ينتهي من البندقية ، يلملم أجزاءها ، يركبها ، يوقفها خلف « الكوارة » .

يراقب السماء من النافذة . بضع غيمات رمادية تعبر السماء ، تسطع الشمس مضيئة أطرافها من الشرق . تنحدر عيناه إلى الأرض . تتلألأ قطرات المطر فوق وريقات شجرة الزيتون . تتراقص . وتلتمع بشدة . كلما هبّت نسمة هواء .

يخرج إلى العراء حين أدبرت الغيمات . يتدفأ بوهج الشمس . يستافُ عبير الأرض والعشب اليابس المخضل بالندى ، يتكىء إلى جذع شجرة الزيتون الوحيدة . يتلمس الجذع ؛ عمرها الآن ثلاثة عشر عاماً (٢) . تختلط أفكاره بلا ترتيب ، يتساءل عما حدث له : يعجب كيف تعيش فكرة واحدة في عقله ثلاثة عشر عاماً . يعجب كيف يغرق الآن في موج ينهال عليه كجدار عتيق .

يراقب الشمس وهي تسقط نحو الغرب ، تهب نسمات طرية ، ينتعش جسده ، تبدأ الجبال الراقدة في الغرب بالتموج ، ينتشر اللون الأحمر دون ضجيج : تتباطأ الشمس في سيرها تولد بضع غيمات ، تقترب من الشمس ؛ ماتزال الدماء عالقة بها ، تلوح بيدها ، يودعها ، تختفي : ينهض ، تختفي ، يدلف إلى البيت ، يختفي : يغلق الباب ببطء .

---

(٢) يفكر أبوسعيد بأن روح ابنه لم تمت ، لقد تقمصت جسداً آخر ، . كان عمر سعيد حين دهسته سيارة أبي عقاب ستة أعوام فقط . وعمر سعيد الآن أيضاً ثلاثة عشر عاماً .

- ٣ -

يخرج دون أن يودّع زوجته ، تركها ترفو سرواله العتيق ؛ تقطع الخيط الرفيع بالأسنان التي أبقتها الأيام سالمة . يغلق الباب ، يسمع صرير مفاصله مثل تكسر عظام ميتة ، يحس أنه فقد حماسه . يغادر متمهلاً « هل ينتظر صوتاً يناديه من الخلف ؟ » .

يختار طريقه بعيداً عن الناس ، يتراكم وحل طفيف على حذائه البلاستيكي ، ينفضه كلما تقدم . يرى القمر صامتاً ، وأمامه ينتشر سواد ثعباني عريض (أمامه كان النهير الشتوي المحيط بالقرية من جميع الجهات ، كان ينتظر ذوبان الثلوج فوق الجبال ليبدأ الكلام والضحك) ، تترامى الأغنيات من بعيد ويتأتيء مسدس ، وبضع بنادق ، يتساءل : كيف يمكن للبندقية أن تشارك في الفرح وفي صنع الأحزان ؟ (يفكر في بندقيته) يقطع النهير ، ويصعد ميمماً شطر بيت أبي عقاب ، تتسع الاغنيات ، تختلط أصوات النساء بأصوات الرجال ، بصخب الأطفال ، بطلقات الرصاص، أصوات،طلقات ، صخب ، أغنيات ،

يتسلق الحائط ، يرمي بندقيته فوق السطح ، يصعد ، يتقدم حبواً ، زحفاً ، يتكىء إلى حجر ، يرمق العرس ، شاعت رائحة بكر من العشب النابت على السطح الترابي في منخريه ، يدخل جمع كثيف مختلط من النساء والرجال والأطفال يحيطون بفرس عجوز ناتئة العظام ، تحمل العروس . يرقص أبو عقاب أمام الجميع ، يحسده ؛ ليته كان محله . يقول : كنت سأري الجميع ماهو الرقص ، تزغرد امرأة ، تباهي امرأة ، تزغرد نساء كثيرات .

ينزل عقاب عروسه عن الفرس ، يتأبط ذراعها ، يسمع أبو سعيد بضع أصوات :

(يسمع الأصوات واضحة رغم اللفوف والأغاني) .

- مبروك ياعقاب .

- مبروك ياأبا عقاب .

- لتروج الكل في حياتك ياأبا عقاب .

- عقبال أولادك .

- تتهنى ياعقاب .

يصوبّ بندقيته إلى عقاب : تتراءى صورة سعيد .
يتراجع في الحال : يراه متأبطاً ذراع عروسه (لا يعرف
من أين استحضر صورتها) . نقش من الألوان الراقصة
في ضوء « اللوكس » . سماء معتمة ، حيث كانت تلج
الشمس عقاب ، فرح التراب بلونه ، عقاب ! سعيد !
سيطلق ، سعيد : أويها ياشيخ سعيد . . .

مذنّب يخترق ثلماً في السماء النجمية ، صارت الغيمة
عمامة ، لامس ماء العشب الندي لحمه ، زغاريد .
أين كنتن ذلك الصباح حين بكيت ؟ أبكيتن معي ؟
بم م م . .

وستبكين الآن ان أطلقت ، سأطلق .

أبا عقاب : هل أبكيك ؟ . نهر الدموع أسود ،
وهذا الليل ، والبندقية .

عقاب ! سعيد ! أويها يا . . . ويركب أطفالك على
ظهري وينخشون ، حا .

« كنا زوجناهما معاً » . . « استاذ مثله ! » وأقول
تعال يا ــ . . . ياسعيد ــ لا .

يدفع البندقية إلى الخلف . يتراجع زحفاً ، حبواً ، ينزل . يغرز بوز البندقية في الوحل . يقفز فوق الحجارة ، يقفز فوق حيطان البيادر ، يتعثر بحجر . يكاد يقع ، يقذف الحجر برجله ، تأخذ الأشياء لوناً ، ورائحة ، وامتداداً في المكان والزمان مختلفاً عن ذي قبل ، ينحدر إلى النهير الشتوي المنتظر الماء ، تعبق رائحة الريحان الخشنة ، النفاذة في أنفه بقوة ، يدفن وجهه في شجيرة صغيرة ، يعالج أحد العيدان ، يدسه قرب أنفه . . .

– ٤ –

رآها ، كانت تلبس ثيابها الجديدة ، وتنظر .

ابتسمت ، ابتسم ، قالت : « نذهب إلى هناك ؟ » .

هز رأسه موافقاً ، أعاد البندقية إلى السقيفة ، وقال :

« سأذهب إلى خلف غداً . إنه يشتري أسلحة » .

١٩٧٦

• • •


أبو حسن

في التاسعة والنصف صباحاً ، من يوم السبت ، وهو يوم مزدحم بالعمل ، والناس والاتصالات ، في شركة (. . .) دخل إلى مكتب المدير كهل في الستين من عمره . قصير القامة . محدودب الظهر قليلاً . أشيب (وقد أضفت سحنته المعتمة بلون الحديد الصدىء على الشيب مظهراً وقوراً . على الرغم ، من أن الشعر بدا مهملاً وغير مسرّح بشكل جيد) .

ومع أن النظرة السريعة إلى أبي حسن (هكذا ينادونه) تجعل المرء يظن أنه قد اعتاد إهمال شعره ، وثيابه ، بيد أن الحقيقة ليست كذلك ؛ فلأجل هذه المناسبة بالذات ، أصرّت ابنته أن يترك « الحطة والعقال » في البيت ، (وهذا هو سبب الشعر المنكوش الذي رفض أن ينصاع للقرار المفاجىء) واشترى البنطلون العلي الذي يلبسه الآن ، والجاكيت الأسود ذي الياقة العريضة على الطريقة الأوروبية ،

من البالة ، . . . وقد كان اكتشاف ذلك سهلاً (كما سنرى بعد قليل) بسبب تجعد الثياب التي كويت في الأمس فقط (وقد شاركت الشعر في موقفه الرافض) ورائحة النفتالين النفاذة التي تفوح منها .

أما القميص ، وربطة العنق ، فهما قديمان ، وقد ارتداهما يوم افتتاح مدرسة القرية ، وكذلك يوم أرسلوا الباصات لجلب الناس ، كي يستقبلوا الرئيس الذي زار السويداء قبل سنوات . وباختصار ، فان مصدر جدتهما هو قلة استعمالهما .

سلّم أبو حسن . ووقف بعيداً عن طاولة المدير العريضة ، مشبكاً يديه حول وسطه ، ومطأطئاً رأسه ، بدا مجهداً ، وتعباً ، وخجولاً ، وقد انهمر العرق من جميع أجزاء جسده (رغم أنه لاحظ أن الغرفة باردة ، وأن هواءً منعشاً يهب إليه كل بضع ثوان من مروحة في الزاوية) جفف عرق جبينه ووجهه بمنديل قماشي رمادي اللون ، ثم جفف عرق يديه ببنطلونه ، وظل

يراقب المدير الذي لم يعره أي انتباه حتى الآن . كان شاباً في العقد الرابع ، بديناً بعض الشيء ، أسمر البشرة ، تظهر بين أسنانه سن ذهبية ، لامعة ، ضاحكة ، وكان مشغولاً بتوبيخ موظف صغير القامة ، أنيق المظهر ، بسبب غيابه المتكرر ، بدت علامات اللامبالاة وفراغ الصبر والملل على الموظف ، بيد أن المدير الذي لاحظ ذلك ، لم يكتف هذه المرة بالقول : «لن أسمح لك . وهذه هي المرة الأخيرة وزاد الأمر عن حده» ، بل قال بهدوء ، وبلهجة قاطعة ونهائية : « سأكتفي اليوم بحسم خمسة بالمئة من الراتب لمدة شهرين » .

وبالهدوء ذاته أضاف : «وأرجو أن لايتكرر الغياب ».

« أرجوك ياأستاذ » قال الموظف مذعوراً .

« خمسة بالمئة » كرر المدير . وحمل قلماً بيده ، راح ينقر به زجاج الطاولة (وقد شعر بالزهو) « الأفضل أن لاتكرر هذا » .

« استاذ ! » ردّد الموظف .

« انتهينا الآن » .

وللمرة الأولى ، التفت المدير إلى أبي حسن ، وقد تبدلت ملامح وجهه ؛ فاكتست مرحاً وبشاشة ، وتساءل بعينيه ، وبحركة من رأسه اعتادها بعد تعيينه في منصب المدير ، وقال « نعم ؟ » وماكاد أبو حسن يفتح فمه ، وينطق كلمة غامضة ، غير مفهومة ، حتى أشاح المدير بوجهه عنه ، ووقف مرحباً ، فاتحاً ذراعيه ، بالبشاشة ذاتها والمرح نفسه ، لرجل قادم من الباب :

« أهلاً أبا سالم ، حياالله » .

وبدا أبو سالم على معرفة طيبة بالمدير ، صافحه مصافحة اليد (وقد أراد أن يقبله ، بيد أن المدير بدا راغباً عن ذلك ؛ فظهر الضيف محرجاً بعض الشيء ، لكنه تخلص من الحرج سريعاً ، ورسم على وجهه الحليق ابتسامة لامعة) .

« تفضل » أشار المدير إلى مقعد مجاور له ، ثم قدم سيكارة للضيف الذي اعتذر ، فأشعل المدير سيكارته ، ونفث دخانها في الهواء ، فتراقص قليلاً في دوائر ضبابية

صغيرة . ثم تبعثر بسرعة حين لامسه هواء المروحة الراكض ، اشتهى ابو حسن الدخان ؛ فأخرج علبته وأشعل سيكارة لنفسه ، ولاحظ في الوقت ذاته أن المدير قد أشار المستخدم ، فقدم له منفضة السكائر ، ثم التفت إليه ثانية ، وكأنما فطن لوجوده المرة الأولى أيضاً . . غمزه بطرف عينيه ، مع حركة خفيفة لطيفه من الرأس . وإشارة تقطر رقة من اليد ، ليجلس ، فاختار أبو حسن أول المقاعد من ناحية الباب - وهو الأقرب إليه - وجلس على حافته وهو يشعر برغبة جارفة لأن يلعن لطفيه ابنته على الملأ . . تراءت له أمها وهي تحثه على المجيء ، ومدير العمل وهو يقرأ اسمه بين أسماء من فصلوا من العمل المياوم في تعبيد الطرق ، وشريط طويل من الذكريات البعيدة ، من ماضيه والقريبة من حاضره . . . . أعاده إلى الغرفة رنين هاتف ، وتصور لوهلة أن المدير سيخطيء في معرفة أي الهواتف يرن ، بيد أن المدير خيب ظنه ؛ تناول ذا اللون الأحمر ، وشرع يتكلم . شعر أبو حسن بالام في عجزه ، ووخز في عموده الفقري ، وعزا ذلك

لجلسته غير المريحة ، وعزا إليها أيضاً الخنق الذي ينتابه . انزاح إلى الداخل بحركة لولبية ، فسرت الراحة الى جميع أجزاء جسده . . . . نظر المدير اليه (وهو يتكلم في الهاتف) نظرة عابرة ، (وهي عادة لامعنى لها لديه) فخفض أبو حسن بصره ، ولاحظ أن حذاءه متّسخ ، وأن منظره ناشز وغريب، قرب السجادة الجديدة ؛ طوى ساقيه إلى الداخل وخبأ إحدى قدميه خلف الأخرى بحركة عفوية .

« نعم ؟! » استفسر المدير ، بعد أن وضع سماعة الهاتف.

فتنحنح أبو حسن وقال :

« أنا محمود . . . أبو لطفيه » .

خرج صوته ضعيفاً ومبحوحاً .

« آ » قال المدير ، وكأنما فطن لشيء ما ، له حضوره وتأثيره في ذاكرته . أراد أبو حسن أن يضيف شيئاً ما حول موضوع زيارته ؛ إذ اعتقد أن لطفيه لن تكون قد شرحت للمدير كل شيء ، أو أنها قد تكون قصرت

في إضفاء العاطفة على المشكلة . . . وقد أكد هذا الاعتقاد لديه برود المدير وتباطؤه المقصود (هكذا خيل إليه) في تلبية حاجته ، لكن المدير كان قد التفت نحو ضيفه الجديد أبي سالم ، ثم وقع بضعة أوراق حملها البريد إليه... ثم طلب موظفاً باسمه ، وكلمه عن كميات من المواد الخام في الشركة . . ثم خلت الغرفة لثوان ، ساد الصمت ، وهم أبو حسن بالكلام ، لكنه كان مرتبكاً ، بدأ قلبه يدق بعنف دون أن يعرف سبباً لذلك ، وكلما تباطأ وتأخر ، كلما ازدادت دقات قلبه ، وازداد ارتباكه في قول الكلمات التي رددها في ذهنه عشرات المرات. . بل إنه في النهاية نسيها تماماً . . وشعر ، لسبب ما ، أنه ظل طوال حياته ينسى ويرتكب الأخطاء . الخطأ تلو الخطأ ، وأنه لايعرف ، منذ ولد ماذا يفعل في هذا العالم ، وتمنى لو أنه لم يأت ، ولو أن لطفيه لاتعرف هذا المدير المتعجرف وشعر أن الضباب يكتنفه ، وأنه حزين ، فتنهد بعمق ، ولاحظ أن لون الستائر الارجواني يلائم لون الطلاء على الجدران ، وأن انعكاس أشعة الشمس على زجاج الطاولة العريضة ، وارتداده إلى بعض اجزاء الستارة ، يضفي

على وجه المدير هالة من النور والقدسية وتأكد أنه ضعيف ، وأنه فقير . ثم قال لا وتخيل أنه لوكان في فرح أو عزاء لتقدم وشارك حتى لوكان الحضور يربو على الألف ، وسمع من يناديه باسمه وأراد أن يجيب بصوت عال . لكنه أدرك أن المدير يسأله :

« بم تفكر ياأبو لطفيه ؟ » .

فأجاب بجفاء : « أبو حسن » .

فضحك المدير دون حماس ، وأضاف ابو حسن : وقد بدا صوته (وهو خشن وجهوري في العادة — ذا بحة) متعباً وملولاً بسبب كراهيته للموقف ، وبسبب مآل إليه حاله :

« لقد أخبرتك لطفيه بالأمس » .

« نعم » قاطعه المدير حالاً « ولم استطع أن أكلم أحداً بعد » .

فارتجف ابو حسن ، ولأنه كان مايزال تحت تأثير حالة الارتباك وتعطل القدرة على التصرف ، فقد عجز

عن التعليق على ماقال المدير . لام لطفية مرة ثانية . ولعن مدير العمل ، والفقر . لكنه لم يجد . في النهاية . مفراً من الكلام . فسأل :

« ألم تكلم الاستاذ علي ؟ » .

« آ » نطق المدير بهذا الحرف . للمرة الثانية . وحيداً . عارياً . ثم التفت إلى ضيفه أبي سالم وسأل :

« من كان معكم في السهرة ؟ » .

« كثيرون » .

« مثلاً » .

« الاستاذ عادل وابو رؤوف وعبد الكريم » .

« أيضاً ! ؟ . . . والله أنا آسف » .

ثم استدار وقد بدا عليه الملل والضيق ، وتأفف في أعماقه من هذا الشغل الذي لاينتهي طوال النهار ، وتمطى وتثاءب وكاد يعلن سخطه على المناصب والمسؤوليات ، بيد أنه لم يفعل بسبب الوقار الذي يحتاج إليه في العمل . . . استدار نحو أجهزة الهاتف المجاورة له . . . وبالكسل ذاته ، أدار قرص أحدها وانتظر لحظات قبل أن يتكلم . . .

وما أن بدأ حتى استعاد نشاطه ، وزال عنه الضيق ، « آلو ! » .

الاستاذ علي موجود ؟ أنا . . . أهلاً بكم . . صباح الخير (بجبور) صحتك ؟ أحوالك ؟ . . . هكذا ياأخي (ينقر باصبعه على الطاولة) ألم تجدوا إلا من أعزهم ؟ (نظر إلى أبي حسن نظرة ذات مغزى) استاذ علي . . عندي شخص اسمه محمود . . . تعرفونه بلا شك . . . أنتم فصلتموه من العمل قبل ثلاثة أيام . . ألم تجدوا شخصاً آخر غيره . . . هذا معدم (نظر مرة ثانية إلى أبي حسن نظرة متفحصة وكأنما يريد التأكد من كلامه .) . . . والله لايملك مايشتري به الطعام لأولاده ، هل تريد أن تراه ؟ ثيابه كلها من البالة . . (ضحك بقوة) . . آ . . آ حفظك الله ، هذا يهمني أمره . . . لا ! . لا لا ! ياأخي أنت لاترى إلا الوجه الأسود للأمور . . . الله يحفظك . . . مع السلامة . .

والتفت إلى أبي حسن وقال : « يحتاج الأمر لبضعة أيام » .

فاعترض أبو حسن بصوت خشن (وللمرة الأول منذ

التاسعة والنصف ، ربما بسبب أنه لم يفكر بما أراد قوله) :
« لقد عينوا بديلاً عني وعن زملائي جميعاً » .

فقال المدير وهو يغمض عينيه : « مسألة أيام فقط ».

- لكن !

- لتأت لطفيه إلي غداً . . وأنا سأخبرك بالتفصيل .

قال المدير ببرود شديد . . وكان الواضح أن المقابلة قد انتهت ، وأن على أبي حسن أن يغادر ، ولكن الأمر ظل مختلطاً عليه بعض الشيء ؛ هل يصافح المدير قبل أن يذهب ؟ . هل يشكره ؟ هل يستأذن ويمضي دون أن يلتفت ، لكن المدير حسم الموقف حين قال (وقد ارتسمت على وجهه علامة البشاشة ذاتها والمرح ذاته اللذين رسمهما قبل حين) :

« مع السلامة . . . سلّم » .

فحدجه بطرف عينيه دون أن يفكر ، ثم هز رأسه بضع مرات ، ورمى عقب السيكارة المشتعل من يده ، دون أن يلتفت لعيني المستخدم الغاضبتين وانسحب من المكتب ، ولم ينطق بكلمة . . .

نحو الماء

« ولكنني مستمر كالنجم القطبي الذي ليس
لثباته أو رسوخه نظير في السموات ...»
شكسبير « يوليوس قيصر »

كم مضى من الزمن ؟

لايعرف . .

يده لاتفارق الزر المستدير . بجانب رأسه ، لايرى أحداً يأتي . يراقب الباب العريض البعيد ، فيراه غارقاً في غبش ذي حواف مشرشرة . يحاول أن يرى المشهد جيداً ، يفرك عينيه فيتحول الغبش إلى أشباح بلا شكل . ينتظر قدوم ذات الثوب الأبيض ، والظمأ يحرق شفتيه وحلقه ، لاتأتي . يضغط الزر ثانية . . ثالثة . . رابعة ، كل شيء يصير صهداً وعطشاً يحاول أن ينادي ، يصرخ ، لكن صوته يخرج موهناً ضعيفاً ، والقاعة المستطيلة تنكمش يتقراها باحثاً عن مخلّص . فلا يرى سوى المرضى يلجون في نوم مستكين تقطعه أنفاسهم الرطبة ، البطيئة ، متضاربة مختلطة ؛ يهمس لجاره الأقرب بضع كلمات ، فيلوح له الجار برأسه آسفاً : « ياست !! » يصبحُ صوته غريباً

عنه ، غير واضح ، يضغط الزر ضغطة طويـ:ـ:ـيلة ، ثم يرنو بعينيه إلى الباب ، تتبدد كل الحواف والفراغات .

غبش يختفي في سدفة الليل ، دموع تملأ مقلتيه ، سيذهب وحده !

ماء ! هاتوا الماء ! .

تحرك في سريره يتهيأ للنهوض . فطعنته بضع سكاكين بأنصال ساخنة ، ودوّمت طيور جارحة في رأسه ، آلمته ذراعه الملفوفة بضماد السيروم ، مدّ يده ، وانتزع الإبرة غير آبهٍ بالألم ، حرّك ذراعه ، استجابت ببطء ، فطافت على شفتيه ابتسامة واهنة . أنزل ساقه اليمنى ،فتدلّت على حافة السرير ، سرت رعدة في جسده الناحل من البرودة المعدنية للسرير الأملس ، نهض بجذعه إلى الأمام ، فطقطقت عظيمات صغيرة في ظهره .

«يجب أن تظل دون حراك » قال الطبيب بالأمس (يقسو كلما تحدث ، يتجعد حاجباه الأقرنان ويتخدد وجهه) .

« لكني ظمآن ! أريد الماء ! » .

ماذا يحدث لو تحرك ، تنفتح الجروح الندية ؟ تتفتق العملية ؟

يرتد إلى الخلف خائفاً ، لكن العطش يحرق شفتيه :

« لاشي. سيحدث ، وسيذهب وحده » .

يستحيل البياض الراقد في عتمة الأنوار الهامسة ، فوق الجدران ، والأسرة ، والأغطية المريضة ؛ إلى رقصة مرتعشة ، ذاوية . توشوش له غمامة عابرة ؛ ينهض بالألم الذي من عطاش ، وأنصال في جسده : (ترّررح خِيْ !) ينخش الحمار الأبرش الكسول بقوة ؛ « خا ، خاير » يندفع الحمار منحرفاً ناحية اليمين ، يهيل الجدار الحجري نحو الخارج ، يسمع قرقعة الحجارة وهي تتساقط . يفتح عينيه ببطء ، مايزال الألم يجحد جسده ، وهو قاعد على حافة السرير متكئاً إليه بقبضتي يديه . الظمأ يلسع جوفه :

ماء ! هاتوا الماء !

عطش مظلم كقاع بئر .

حزم أشواك !

حصيد ! تراب متشقق !

يرخي رجله اليمنى نحو الأرض مستعيناً بذراعه . تصل إبهام القدم أولاً ثم بقية الأصابع ، واحدة واحدة . . وَ . . ص َ . . لَ . . ت تلامس القدم بلاط القاعة ، يضغط بكامل ثقله فتنغرز أسياخ محماة في ظهره ، تخترق اللحم والعظام .

« رماد أسود ! القاعة تدور » .

« بقرة مذبوحة ! دماء ! » « اشتريها بأربعمئة ليرة ».. « كانت تساوي أربعة آلاف ! » . . . . « هذا مالدي ، ثم إن لحمها سيفسد سريعاً » .

أمطار ، حرائق .

تأتين مثل العصافير . تذهبين كالضباب .

اشباح هاجمة . . ضوء واهن . . النار تزنر جسده .

ماء ! ماء ! أريد الماء !

ترقد قدمه الثانية قرب أختها . يستوي جسده واقفاً . متكئاً إلى السرير ، يخطو خطوة واحدة ، أولاً ، « ولاتنسي طعام العجل » صار يتيماً ، صوته حزين كشمس غاربة ، الخطوة الثانية ، يبدأ الألم في القدم ثم يصعد ، يرشح الجسد عرقاً ، يتهاوى في خطوط متعرجة باردة ، ينصت لكرير آتٍ من صدرٍ ذبيح ، متسلق في سرير ما :

« سيارة ! سيارة قادمة ! » .

« إنه الطبيب » .

« ستعيشين ، افتحي عينيك لأراهما فقط ، أنظري إلى عجلك ولاتبكي ، بالأمس كنت . . . ألم يأت الطبيب » .

« هذا أبو سليمان » .

« سكينك مسنونة ؟ دون ألم الله يخليك » .

تبدأ خطوته الثالثة . تزحف قدمه فوق البلاط المعتم الذي تنطلق منه روائح حريفة من المطهرات ومواد التنظيف الكيميائية . بات الزر بعيداً . كي يجرب مرة أخيرة . تستقر القدم بعد مسافة قصيرة . يئن أثر الألم الذي يبدأ منها ، وتغشى عينيه غلالة من الأشباح الصفراء المتراقصة ، يتعثر بذيل ثوبه الطويل ، ويرفعه إلى الأعلى بأصابعه الناحلة . يرقد الجفاف في شفتيه . لا يغادرهما أبداً . يخيل إليه أنه لن يتابع طريقه إلى الماء . يحس بإعياء . وكسل مفاجئين . تضغط مثانته طالبة الخروج « حتى أنت » يلومها . يتوقف . . بدأت بقعة سوداء (هكذا بدت لعينيه في العتمة) تتجمع في الأسفل خلف ذيل الثوب المرفوع ، يعرف أن جرح العملية قد انفتق ، يجتاحه خوف ورعب لاحدود لهما يتخيل نفسه ميتاً راقداً على بلاط القاعة المعتم الناعم ، الذي يبعث منظره وملمسه فيه القشعريرة ، لاأحد يراه حتى الصباح ، يشعر بميل جارف التبول ، قد يفعل ذلك الآن ، هنا ، في هذه البقعة الصغيرة من الأرض ، قد يفعل ! . . يتخيل أنه يطفو على سطح

نهر من سائل أصفر ذي رائحة عفنة ، يغرق ، يستغيث ، تتشقق شفتاه مثل تراب مجدب . .

« العواض بسلامتك » .

« الله يسلمك » .

غياب ! صمت !

« اربعمئة ليرة فقط ؟ ! » .

« اربعمئة ليرة » .

« دفعت ثمنها أربعة آلاف » .

« وأنا ماذنبي ، هذه مشيئة الله » .

« هاتوا الماء ، وخذوا ماتريدون » .

يخطو خطوتين أخريين ، « لاتتحرك » (يقول الطبيب !) فليقل !

حفيف قدميه العاريتين ، يصل إلى مسمعه ، وهما تسبحان فوق البلاط ، يحس بالبرد ، يخطو رغم ذلك واحدة . . . اثنتان . . . ثلاثة .

يحرقه شيء ما ، ساخن ، في قاع بطنه ، يلتمع الألم ويبرق في عينيه ، نصل حاد ، دخان ، حرائق .

وهنا يتلفت طالباً النجدة ، لانجدة ، فالقاعة ترقد في سكينة المرضى ، والأسرّة والأغطية البيضاء ، والبلاط الناعم ، وأزرار الكهرباء ، وهو وحيد يبحث عن قطرة ماء . .

لماذا الماء بعيد كل هذا البعد ؟

« ادفع ماتريد ، ولكن هات لي شربة ماء ! » .

« وأنتِ لماذا تموتين ؟ »

« حا خاير ، جنِّب ، سأخزك بالمسّاس . . »

« أين الباب لأنفذ منه إلى الماء ؟ » .

توتش . . . توتش . .

ماهذا السكون الذي بلا معنى ؟

ماتلك النقاط السوداء المشرشرة التي تلحق به ؟ دماء ، بقرة مذبوحة ، ينفتق جرح العملية ، لقد انفتق ، لكنه يريد الماء . .

شفتاه شاطىء مهجور ، ولابد أن الماء في مكان ما من هذا المبنى المعبأ بالمرضى ، لابد أنه قريب ، لم يسمحوا له بالحركة من قبل ليتعرف معالم المكان الذي آل إليه . . يأخذ الدواء قسراً حين لايريده ، يأخذ الطعام حين لايشتهيه ، يأخذ الهواء ، وضوء الشمس ، وأنوار الكهرباء والأغطية و . . الماء .

ولكن أين الماء الآن ؟ أين اختفى أولئك العابسون ؟ أتتأففون ؟ ليأتوا لي بالماء ! حلقه دغل متيبس ، يكاد الجفاف يصل إلى جلده ، وأطرافه ، ولسانه ، لايقوى على الحركة ، يدفعه شوقه لرشفة ماء ، يتحد الماء الآن في يقينه مع وجوده كله ، لاقيمة لهذا العالم دون ماء ، « يفكر » .

وفي نهاية الدماء التي تنزف الآن من جرحه الذي انفتح ، في آخر هذا العتم الذي يغلّف القاعة وأشياءها ، فوق البلاط الأملس كجلد حية ، رغم هذا المدى المغلق ، رغم هذا السكون البالي ، سيصل إلى الماء

الماء ! الماء ! الماء !

« ١٩٨٤ »

• • •

الفهرس

٢٠٠٠ ط ١٩٨٥/١١/١



مطابع وزارة الثقافة والإرشاد القومي

دمشق - ١٩٨٥ م

سعر النسخة

٥ ل.س